رواية

إيرينا بابنشيڤا

ريشة طائر البجع

ترجمها عن الإنكليزية: أماني لازار، مراجعة وتدقيق: منصور العمري

المتوسط

إيرينا بابنشيڤا

ريشة طائر البجع

ترجمها عن الإنكليزية: أماني لازار، مراجعة وتدقيق: منصور العمري

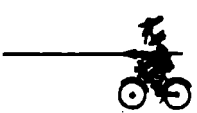

المتوسط

ريشة طائر البجع

حقوق النسخ والترجمة © ٢٠١٨ منشورات المتوسط - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Pelican Feather *by* "Irina Papancheva"
Copyright © 2016 by Irina Papancheva
Arabic copyright © 2018 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: إيرينا بابنشيفا
المترجم: أماني لازار / عنوان الكتاب: ريشة طائر البجع
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-50-2

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

إلى أمّي

الأمل شيءٌ ذو ريش

"إيميلي ديكنسون"

-١-

غادرَنا والدي بادئ الأمر، أو بالأحرى، انتقلت مونيكا؛ لتعيش معنا في البداية. كانت مونيكا صديقة والدتي منذ الطُّفولة. قالت أمّي لأبي ذات مساء إنَّها اتَّصلت من بورغاس. أرادت أن تبدأ حياة جديدة، وترغب بالقدوم إلى صوفيا للبحث عن عمل. لذا؛ سألتْه إن كانت مونيكا تستطيع الإقامة معنا مؤقتًا، لشهر أو شهرين على الأكثر، إلى أن تستقرّ. عقد والدي حاجبيه بصمتٍ مطبق، كما يفعل دوماً عندما يتوجَّب عليه اتِّخاذ قرار، وهو ما جعل أيُّ كلام يقوله بعد ذلك يبدو ثقيلًا. عندما فتح فمه، بدا لي أن كلماته تساقطت كالحصى التي كنتُ أرميها في نهر بسترتشا. كانت تتبع مسارها، ثمّ تسقط بالضبط حيث يفترض بها.

"حسنًا. لكنْ؛ ليس لأكثر من شهر"، أصدر والدي حكمه. أمّي التي حبست أنفاسها بانتظار القرار، تنهّدت مبتسمة، وقبَّلت شفتيه.

"شكرًا ڤانكو(*)، تعلم كم هي وثيقة علاقتنا. أتمنَّى أن تبدأ حياتها أخيرًا".

كنتُ أقرأ في أثناء هذا الحوار الذي تبيَّن لاحقًا مدى أهمّيّته لعائلتنا، كتاب "الأخوَان قلب الأسد"، لكن جزءًا من عقلي كان يصغي إلى المحادثة. شعرتُ فجأة بتنميل في معدتي، هرعتُ إلى الحمّام، وتقيَّأتُ.

وقفت أمّي أمام الباب، وقالت: "مارتن، هل أنت بخير؟"

---

*) صيغة تحبّب لاسم إيڤان.

قال أبي متيقّنًا: "لابدَّ أنه تناول الوجبات السَّريعة في المدرسة من جديد". حاولت أمّي عناقي، فانسللتُ من بين ذراعيها وذهبتُ إلى غرفتي.

حدث هذا في مطلع شهر نيسان.

وصلت مونيكا بعد شهر.

-٢-

أول ما قالته لي جدّتي عندما رأتني: "مارتن، كم كبرتَ! عانقني!"

لم تقل لأمّي شيئًا. حسبها أنها عانقتها لفترة أطول بقليل، وعندما أفلتتها، رأيتُ عيني أمّي تغرورقان.

تقع شقَّة جدَّتي وسط مدينة بورغاس، بشارع ڤاردر في مبنى الشقق السكنية الطويل المجاور لجامعة فري. تعيش هناك بمفردها في شقَّة من ثلاث غرف ومطبخ، بعد أن ارتقى جدِّي إلى الجنّة منذ ثلاث سنوات. هكذا أصبح لدي غرفة من جديد. لم آتِ هنا منذ الصَّيف المنصرم، لكني أقمت حينها لفترة وجيزة. اعتدتُ وأمّي وأبي الذَّهاب في أيام العطلات إلى "الرِّمال الذهبية" وإلى "آلبينا" كلَّ صيف، وكنا نعرِّج على بورغاس لزيارة جدَّتي، وجدِّي أيضًا في السَّنوات السَّابقة. لكننا لم نمكث أكثر من ليلة أبدًا.

حضَّرت لنا جدَّتي يخنة البطاطا وقالت: "لابد أنكما تشعران بالجوع بعد الرِّحلة!" بدا لي أنها تحاول أن تكون مرحة.

لستُ جائعًا جدًا؛ لأني تناولت شطيرة لحم وجبن قبل ساعة ونصف فقط، في أثناء توقُّف الحافلة للاستراحة. لم تتناول أمّي شيئًا، وحسبها الآن أنها تحرّك البطاطا في طبقها. لم تعد تأكل جيداً منذ غادر والدي. كانت تبكي كثيرًا في البداية. حصلت على إجازة من عملها لعدَّة أيام،

ولم تفعل شيئًا سوى الاستلقاء والبكاء. لم تأكل على الإطلاق حينها. كانت تأتي فقط؛ لتتحقق إن أكلتُ، وتحضِّر وجبة سريعة لي. كانت أيضًا تتحدّث بالهاتف مطوّلًا مع الخالة آنا، صديقتها المقرَّبة.

سمعتُها تشرح قائلة إنها لم تعد راغبة في الحياة بعد الآن، وإنها تحافظ على حياتها من أجلي فقط. أفزعني ذلك كثيرًا. ماذا سأفعل إذا تركتْني أمّي أيضًا؟ هل سيُودعونني في أحد دور الأيتام، كالذي نشأت فيه جدَّتي؟ لم أرغب بالذَّهاب هناك، مررنا مرّة بمبناه في بورغاس. كان السِّياج مرتفعًا حقًا، وبدا الأطفال من خلف القضبان مثل قرود محتجزين في قفص.

أعتقد أن الخالة آنا كانت خائفة أيضًا من ذلك الحديث بمجمله؛ لأنها زارتنا، وطلبت من أمّي مراجعة طبيب الأعصاب. لم ترغب أمّي في الذَّهاب، لكن الخالة آنا ألَّحت عليها حتّى استسلمت. بعد عيادة الطبيب، بدأت أمّي تتناول تلك الحبوب الصَّغيرة. قلَّ بكاؤها أيضًا، وبدأت تأكل قليلًا، وكانت تسألني أيضًا عن فروضي المدرسيَّة، ثمّ عادت إلى العمل.

اتَّصلت جدتي كثيرًا أيضًا. أكثر بكثير مما كانت تفعل في السَّابق. تحدَّثتا طويلًا ذات مساء. كانتا تتجادلان في البداية، وظلَّت أمّي تُردِّد إنَّها بخير، ثمّ أجهشت بالبكاء. قالت أخيرًا: "حسنًا، سنأتي". عندما انتهت المحادثة، دنت مني، وقالت: "سوف نذهب إلى بورغاس في نهاية الشَّهر، بعد أن تُنهي مدرستك. سنقيم هناك مع جدّتك إلى حين".

لم أعرف ماذا أقول. أردتُ حقًا الذَّهاب إلى الشاطئ وقضاء بعض الوقت مع جدَّتي، لكنْ؛ في الوقت نفسه، كان جميع أصدقائي، وأكثرهم أهمّيَّة، أليكس في صوفيا. لكني لم أرغب في إزعاج أمّي ثانية، لذا؛ حاولتُ أن أبتسم، وقلتُ: "حسنًا".

قالت: "هل أنت سعيد؟" كما لو كانت تسأل نفسها لا أنا.

قلتُ: "جدًا"، فعانقتْني. ضغطتْني بشدَّة كبيرة على صدرها، وارتبكتُ لأنها لم تعانقني منذ وقت طويل.

-٣-

تعود معرفة أمّي بمونيكا إلى زمن بعيد. روت أمّي قبل مجيئها قصَّتهما الكاملة للخالة آنا التي أصغت باهتمام، وقالت أخيرًا: "هممم...". عرفَت واحدتهما الأخرى منذ الطُّفولة. كانتا بداية في الصفّ نفسه في روضة الأطفال، ثمّ التحقتا بالمدرسة معًا، ثمّ انضمّتا إلى مدرسة اللغة الإنكليزية الثَّانوية، لكن طرقهما افترقت بعد ذلك. ذهبت أمّي للدراسة في صوفيا، والتقت لاحقًا والدي هنا. تزوَّجت مونيكا من حبيب أمِّي في المدرسة الثَّانوية، هكذا تمامًا، دون سابق إنذار.

أصبح محبوبها. حينئذٍ قلَّت زيارات أمّي إلى بورغاس، بالإضافة إلى أنَّ الوضع كان مُحرجًا نوعًا ما، بسبب حبيبهما المشترك (لم أفهم ذلك حقًا، ظننتُ أن أمّي كانت مع أبي أصلًا)، وهكذا انقطعت علاقتهما تدريجًيا. مع ذلك، اقتفت مونيكا منذ بضعة أشهر أثر أمّي على موقع فيسبوك، وأرسلت إليها رسالة تقول فيها إنَّها انفصلت عن حبيب المدرسة الثانوية، وليس لديها أطفال، كانت تعمل سكرتيرة في أحد المكاتب، ولم تكن سعيدة في حياتها.

روت أميأمّي هذه القصَّة لأبي بانفعال، ونحن نتناول طعام العشاء ذات مساء. غير أنها لم تذكر شيئًا عن حبيب المدرسة الثانوية. لم يصغ والدي حقاً، كان ينظر إلى التِّلفاز بين الحين والآخر خلف ظهر أمّي.

واظبت أمّي خلال الأيام القليلة التي تلت على التحدُّث عن الرسائل

التي بدأت تتبادلها مع مونيكا بانتظام. تذكَّرت أمورًا حدثت في طفولتهما وفي المدرسة، وبدت إلى حدٍّ ما أيضًا أشبه بتلميذة في أثناء ذلك. قالت إنَّ مونيكا في صِغرها أحبَّت الطَّعام، وكانت ممتلئة الجسم نوعًا ما. مرُّوا في إحدى الرَّحلات المدرسية بمنحلة، واشترت قرص عسل. لكنْ؛ كان فيه نحلة عقصت لسان مونيكا (أو هل كان دبُّوراً؟).

شرعت مونيكا بالبكاء، انتفخ فمها، وراح الفتية يسخرون منها مطلقين عليها لقب "تيدي الدُّب" الصَّغير النَّهم. وبَّختْهم أمّي التي كان لها عليهم بعض السُّلطة فيما يبدو، لأنها كانت رئيسة(*) الصَّفّ (أيًا كان معنى هذا)، وشعروا بالإحراج. مَن سيخطر في باله أنَّ أمّي كانت هكذا... لاحقًا، مع ذلك، بدأت مونيكا بمصاحبة فتيات أخريات أكبر سنًا من الحي، وأصبحت "عصريَّة" للغاية.

أعطت أمّي بعض الكُتُب الممنوعة؛ لتقرأها، واقترحت أن تصبغا شعرهما بالحنَّة، ما كاد يصيب جدّتي وجدَّي بسكتة قلبية، وساعدت أمّي في أن تلتقي الفتى الذي يعجبها (لم أفهم فقط إذا كان ذلك الفتى هو حبيب المدرسة الثانوية). بالمقابل، أدَّت أمّي فروض مادّة اللغة الإنكليزية عن مونيكا.

بصدق، مرَّ وقت طويل مذ رأيتُ أمّي على هذه الدَّرجة من الانفعال والحماس. أصغيتُ إليها، ولم يكن هناك بدّ إلا أن أُعجب من انفراط عقد هذه الصَّداقة المتينة كُلّيًا؟ حسبي أني لا أفهم النِّساء، وهذا هو الأمر!

وهذا ما حدث، إلى أن سألَت أمّي والدي ذات مساء حول إمكانية أن تأتي مونيكا للإقامة معنا.

---

*) خلال الحقبة السوفييتية في بلغاريا، كان جميع الأطفال بين سنّ التاسعة والرابعة عشرة جزءًا من حركة الشباب الطليعي الجماعية. كانت منظّمة في "فرق" تماثل المجموعات الصّفّيّة. يختار الأطفال " رئيس" الفرقة (أو الصف)؛ ليكون مسؤولًا عن نشاطات المجموعة.

-٤-

ذهبت أمّي إلى صالون الحلاقة في اليوم الذي توقّعت فيه وصول مونيكا. لم ترَ واحدتهما الأخرى منذ خمسة عشر عامًا، وأرادت أن تُظهر لصديقتها أنها لم "تتغيّر كثيرًا". سمعتُهما تدخلان أوّل المساء. كانتا تتحدّثان في الرُّدهة. ثمّ دخلتا إلى الغرفة. التفتت أمّي إليَّ، وقالت: "مارتن، أقدِّم إليك مونيكا".

كان صوتها مختلفًا نوعاً ما. كما لو أنها على وشك أن تُلقي قصيدة هامَّةً للغاية، من النوع الذي يعلّمونا إيَّاه في المدرسة.

عندئذٍ دخلت مونيكا. لم تكن فارعة الطُّول، وكان شعرها مصبوغاً باللون الأشقر المتدرّج، مقصوصاً ومسرَّحاً وفق أحدث موضة. كان أطول قليلًا عند الغُرَّة، وأقصر قليلًا عند مؤخّرة العنق. بدا وجهها بلون شمعة، وابتسامتها العريضة كانت لهبها، وكشفت عن أسنان ناصعة البياض أيضًا. كانت عيناها بنفسجيتين مشعَّتين أيضًا. ارتدت كنزة ضيِّقة سماوية اللون مكشوفة عند خط العنق، وتنّورة سوداء قصيرة، وجوارب شبكية، بالإضافة إلى حذاء أسود بكعب رفيع عالٍ. لم ترتدِ أمّي يومًا التنانير القصيرة، أو الجوارب الشبكيَّة، أو كعب كهذا. نظرتُ إليها واقفة قرب مونيكا. بدا شعرها الخرنوبي الدَّاكن المرفوع على غير طبيعته مثل خوذة. كانت تبتسم أيضًا، وبدت في غاية السَّعادة. لكنْ؛ يمكنك أن ترى إرهاقًا خلف ابتسامتها. ارتدت تنُّورة بنّيَّة تصل إلى الرُّكبة، وسترة بنّيّة. قميصًا أبيض،

جميع أزراره مغلقة تقريبًا. كانت أمّي أنيقة، لكنها تبدو مثل خالة. في حين بدت مونيكا أكثر شبهًا بأخت كبرى.

لكنْ؛ ليس ذلك فقط، كانت أجمل الأخوات الكبيرات اللاتي رأيتهنَّ على الإطلاق.

"مارتن، هل أكل القطُّ لسانكَ؟ هيّا، سلِّم على مونيكا".

نهضتُ، ومددتُ يدي بعصبية، مشيحًا ببصري.

"أنا مارتن".

أمسكت مونيكا بيدي، ورحتُ أتورَّد خجلًا.

"يا له من اسمٍ جميل! سعيدة برؤيتكَ، مارتن. أنا مونيكا. ويمكنك أن تناديني مونيكا وحسب. لا تبدأ بمناداتي خالتي، من فضلك".

كان صوتها لطيفًا للغاية، من النَّوع الذي تسمعه من تلك النِّساء المضيفات في حفلات الزِّفاف. حضرنا حفل زفاف منذ بضعة أشهر، وكان للسيدة التي تقرأ الخطاب نفس الصَّوت تمامًا. أحببتُه حقًا حينئذٍ. ضحكت مونيكا، وأحببتُ ضحكتها أيضًا. أحببتُ كلَّ ما فيها.

قالت أمّي: "والآن يمكنك متابعة فروضك المدرسية"، وذهبتا إلى المطبخ.

سمعتُ صوتهما من بعيد. صوت أمّي الهادئ وصوت مونيكا الموسيقي. لم أتمكَّن من تبيُّن الكلمات، مهما حاولتُ، فراحت تبدو لي مثل أغنية ديو (ثنائية). تساءلتُ إذا كانتا تتحدّثان عني؟ أردتُ أن أعرف ذلك أكثر من أي شيء آخر.

بعد ساعة أو اثنتين سمعتُ صوت والدي، وقد عاد إلى البيت. ذهبتُ إلى الغرفة الأخرى؛ لأسلِّم عليه. وهكذا شهدتُ لحظة تقديم أمّي مونيكا إليه. كنتُ خلفها، ولم أتمكَّن من رؤية وجهها، لكني رأيتُ وجهه. كان يحمل تعبيراً لم أشهده من قبل. كان مشدوهاً، كما لو أنَّ مونيكا من عالم آخر، ولم يدرِ ما يقول. والدي دومًا يعرف ماذا عليه أن يقول. استمرّ هذا للحظة، لكني شعرتُ بتنميل في معدتي، كما حدث عندما سمعتُ بها للمرّة الأولى. لكنْ؛ هذه المرة لم أتقيّأ. ابتسم والدي، وصافح مونيكا.

"أنا إيڤان، سعيد برؤيتك. مرحبًا بك في بيتك! خذي راحتك".

رأيتُ مدى سعادة أمّي لسماعها هذه الكلمات، وكيف انفرجت أساريرها.

"مرحبًا بنيّ. كيف كان يومك؟" اقترب والدي مني، ولاعب شعري.

فأجاني هذا السُّؤال بالتأكيد؛ لأن والدي لم يسألني يومًا عن شيء. عادة، يسأل أمّي فقط: "هل قرأ دروسه؟ هل أدَّى فروضه المدرسية؟ هل هو أفضل؟ (هذا عندما أكون مريضًا)، -كلها كما لو أني لستُ موجودًا. لم أعرف ماذا أقول، لذا؛ حسبي أن عدتُ إلى غرفتي.

بعد قليل، نادتْني أمّي لتناول العشاء. أتذكَّر العشاء ذلك المساء؛ لأنَّ كل شيء كان مختلفًا. كانت أمّي متوهِّجة وجميلة جدًا. كانت تبتسم طوال الليل، وتتحدّث بانفعال. لم يكن أبي يحدِّق إلى التلفاز طوال الوقت، بل روى لنا بعض النُّكات التي أضحكت مونيكا كثيرًا. غمرني ضحكها، وشعرتُ برغبة في الغناء، ومعانقتهم جميعًا، وأن أطلب منهم أن تبقى مونيكا معنا إلى الأبد.

-٥-

بعد أن تناولنا وجبة الغداء، حصَّتين من الطَّعام لي، وأمّي لم تكد تأكل شيئًا، رمقتْنا جدّتي بإحدى نظراتها الصارمة التي لطالما أخافتْني قليلًا. عندما تنظر إليَّ بتلك الطريقة هذا يعني أنها عاكفة على أمر لا أرغب فيه بالضرورة. رأيتُ وجه أمّي يتوتّر بالترقُّب أيضًا.

أعلنت جدّتي: "وضعتُ خطَّة برنامج إعادة تأهيل لكما. يبدأ منذ صباح الغد".

"أيُّ برنامج، أمّي؟ لا نحتاج إلى أيَّ برامج، أتينا إلى هنا لنستريح"، حاولت أمّي المقاومة.

"بالضَّبط! راحة! لكنْ؛ راحة مُنشِّطة. ولا أريد سماع كلمة أخرى عن الأمر! أنت وابنك بحاجة لاكتساب بعض القوَّة، إذنْ؛ علامَ هذه الوجوه الخائبة؟! بالتَّأكيد العالم لم ينتهِ بعد!؟"

العالم لم ينتهِ... بعد. لكنْ؛ عندما أيقظتْنا جدَّتي عند السَّاعة السَّادسة من صباح اليوم التالي، بدا بالتأكيد كما لو أنه انتهى، على الأقل بالنِّسبة إلي. وكما لو أن عطلتي الصيفية-التي كانت قد بدأت للتّوّ-انتهت أيضًا.

-٦-

كانت تلك أسعد أيَّام حياتي. يذهب والديَّ في الصَّباح إلى العمل، وأبقى في البيت مع مونيكا، وأؤدي فروضي المدرسية. تنهض مونيكا متأخّرة، وتأتي إلى غرفتي؛ لتلقي عليَّ تحيَّة الصَّباح، ثمّ تسألني بذلك الصوت اللطيف فيما إذا كنتُ أرغب في الجلوس معها بينما تحتسي قهوتها.

فأوافق على الفور. فقط أفرغ من تأدية فرضي المدرسي، وأنضمُّ إليها. تحضِّر القهوة، وتفوح رائحتها في أرجاء المطبخ، وفي غرفة الجلوس أيضًا. ثمّ نجلس على الأريكة، تتناول رشفات طويلة، وتسألني. عن مدرستي، وأصدقائي، وإذا كنتُ معجبًا بأيّ فتاة. لم يكن لدى والديَّ الوقت يومًا للتحدّث إليَّ بهذا الشَّكل. لم أغضب منهما؛ لأني أعرف بأنهما متعبان، ولديهما عمل كثير يجب عليهما إنجازه. والآن، حتّى لو حاولا التَّحدث إليَّ بتلك الطريقة، لم أعد راغبًا في ذلك، لا أشعر بالراحة. لكني كنتُ مرتاحًا مع مونيكا. يمكنني أن أروي لها كل شيء. ليس على الفور، بل شيئًا فشيئًا. تصغي وتُومئ وترتشف وتبتسم.

حكيتُ لها عن أليكس، عن جلوسنا جنبًا إلى جنب في المقعد نفسه، عن رائحة البنفسج التي تتضوَّع منها، وعن أنَّ لها أجمل غمّازتين في العالم.

سألتْني مونيكا مرّة: "وهل تعرف هي بأنك معجب بها؟"

"لا. لا تعرف. لا أحد يعرف. ومن فضلك... لا تخبري أمّي وأبي".

"بالتأكيد لن أفعل". داعبت مونيكا شعري، وتورَّدتُ خجلًا.

كانت مونيكا تعدُّ لكلينا شيئًا نأكله ظهراً، البيض أو الشَّطائر. نتناول الطَّعام معًا، ثمّ أذهب إلى المدرسة.

نلتقي جميعًا على العشاء. كان مزاج والديَّ جيدًا دومًا. يرويان لمونيكا أمورًا حدثت في العمل، فتصغي وتومئ. كلّما كانا في مزاج عصبي من شيء ما طلبت منهما ألا يقلقا بشأنه. يسألانها بدورهما عن مجريات بحثها عن العمل، فتجيب أنها تنتظر اتصالًا من مكان، وأنَّ شخصًا وعدها بشيء، وأن التَّقدم لأعمال وردت في الإعلانات كان عقيمًا لأنَّ الأجور زهيدة جدًا، ولن تكون قادرة على دفع أجرة بيت بمفردها. تمنّيتُ في سرِّي ألا تجد مونيكا عملاً البتة؛ لتبقى معنا إلى الأبد. وتكون أمّي الثانية، أو أختي الكبرى.

وهكذا فات الوقت، إلى أن أزفَ ذلك اليوم المشؤوم في صالة السِّينما. لكنْ؛ قبله، كان هناك درجة الـ F في مادَّة الأدب.

-٧-

أفضل ما في العطلة هو أنَّ في وسعي النَّوم حتّى وقت متأخّر. ليس عليَّ الاستيقاظ باكرًا، كما يحدث عندما أذهب إلى المدرسة. لم يُقلق والديَّ نومي، عندما كنَّا في صوفيا أو في عطلة، لاسيما إذا كنَّا في عطلة. ننهض حينها عند السَّاعة العاشرة تقريبًا، نتناول طعام الفطور في الفندق، ثمّ نتوجَّه إلى الشَّاطئ. كما يفعل الجميع في العطلة. هذا ما كنتُ أفكِّر فيه ذلك الصَّباح عندما أيقظتْني جدَّتي عند مطلع الفجر، والتبس عليَّ الأمر، ظانًا أنَّ عليَّ الذَّهاب إلى المدرسة. لكنْ؛ حينها رأيتُ وجهها، وتذكّرتُ بأني في عطلة، في بورغاس، وأن... لكنْ؛ لماذا توقظني جدّتي في وقت باكر جدًا؟! ما الذي حصل لها؟

سمعتُ أمّي تحاول مقاومتها أيضًا، لكن جدّتي كانت عنيدة.

قالت بصوت مرتفع: "هيَّا، أيتها الرؤوس النائمة! هيَّا، حلَّ الظهر!"

نعم، صحيح، الظُّهر. كان الفجر قد انبلج لتوِّه في الخارج. لكنْ؛ لم يكن لدينا خيار، لذا؛ نهضنا. فعلتُ لأنها جدّتي، وكان عليَّ أن أُبدي لها الاحترام، وأنفِّذ ما تقول. واستسلمت أمّي لأنها لم تكن تملك القوة مؤخّرًا لتقاوم أي شيء إلا بالكاد.

قالت جدّتي بلهجة آمرة: "ارتديا لباس البحر!"

رضخنا. تبعنا جدَّتي إلى "حديقة البحر" التي هي بالفعل مجرَّد منتزه

عادي محاذٍ للبحر، لذا؛ لا أفهم حقيقة لماذا يدعونها بالحديقة هنا. أدركتُ لحظة دخولنا إلى تلك الحديقة-المنتزه، أنه ليس جميع العقلاء يتأخّرون في النوم صيفًا. ما لم يكن جميع هؤلاء الناس مجانين. لكنْ؛ لا يمكن أن يكونوا مجانين جميعًا، كان هناك كثير منهم. وهكذا، مجانين أم لا، كانوا يركبون الدَّراجات الهوائية، يسيرون على الرَّمل أو في الماء، يمارسون التَّمارين الرياضية، وكان البعض يسبح أيضًا. لم يخطر لي يومًا أنه في مقدورك السِّباحة في ذلك الوقت من اليوم. لطالما ذهبنا للسباحة في أثناء النَّهار فقط. توجَّهنا إلى الشَّاطئ. توقَّفت جدّتي في مكان قرب الشَّاطئ، بعيدًا عن المظلَّات، رمت مناشفنا على الرَّمل، وقالت: "سننزل إلى البحر! الماء دافئ كالشَّاي".

رفضت أمّي النزول، ولم تلحّ جدَّتي عليها. كان الماء المالح دافئًا بالفعل. سبحنا في انعكاس الشَّمس على المياه، والذي تلاشى تدريجًيا مع ازدياد ضوء النهار.

كانت أمّي في هذه الأثناء مستلقية على ظهرها، على منشفتها، تنظر إلى السَّماء. أحببتُ برنامج جدّتي حتحتّى هذا الوقت، لكني كنتُ أشعر بالنعاس حقًا.

قالت جدّتي: "سنقوم الآن ببعض التَّمارين البسيطة. تعلّمناها في صفّ اليوغا"، وخرجنا إلى الشَّاطئ.

"ماهي اليوغا؟" أردتُ أن أعرف في الحال.

روت جدّتي: "اليوغا هي نظام تمارين هندي قديم، يقوّي صحّتك الجسدية والذهنية. تُسمَّى التمارين وضعيات، أنتما على وشك أن تريا أثرها المذهل بنفسيكما".

بدأت تُرينا وتخبرنا متى نأخذ شهيقًا، ومتى نطلق الزفير. شعرتُ بالارتياح عندما عرفتُ أنَّ هناك خمسة تمارين فقط، وأعتقد أن أمّي شعرت بذلك أيضًا. لم تكن صعبة على الإطلاق. كان علينا أن نكرّر كلَّ واحد منها خمس مرّات. كان علينا عموماً ثني أجسادنا في اتجاهات مختلفة. حاولت أمّي أن تغشّ، لكن جدّتي لم تسامحها هذه المرَّة. عندما انتهينا من التَّمارين، اعتقدتُ أن هذا كل شيء. لكنْ؛ لم يكن الأمر كذلك. بسطت جدّتي مناشفنا بهمَّةٍ على الرمل، وقالت: "حان الآن وقت التَّأمُّل".

رأت النَّظرة الحائرة على وجهي، فسارعت إلى الشَّرح:

"عندما تتأمّل، تسترخي ولا تفكّر في شيء. هذا ما سنفعله-نريد أن نوقف قطار الأفكار، ونريح عقولنا. وندخل في حالة من استرخاء عميق".

جلسنا على مناشفنا، وصالبنا ساقينا. أغمضتُ عينيّ بإحكام، وحاولتُ أن أتأمّل جاهدًا. حاولتُ ألا أفكِّر بأي شيء وهكذا كنتُ أفكّر كيف عليَّ أن أتوقَّف عن التفكير، ثمّ حاولتُ مرّة أخرى، وشعرتُ كأن الدُّخان يخرج من أذنيّ مع كل مساعيَّ للتوقّف عن التفكير بأنَّ عليَّ أن أتوقَّف عن التفكير. ثمّ رأيتُ مونيكا على حين غرَّة، ابتسامتها الكبيرة وأسنانها نَّاصعة البياض أيضًا، وشعرتُ بأنها تداعب شعري كما كانت تفعل. إذا كان ذلك هو التأمّل، فأنا أحببتُه كثيرًا الآن.

-٨-

كُلّفتُ بكتابة مقالة تجيب عن السُّؤال: "ما سبب خلود قصيدة " أنا بلغاري" لإيڤان ڤازوڤ(*) ؟". كان والديَّ في العمل، وكنتُ أتصبَّب عَرَقًا على دفتري في غرفتي عندما ظهرت مونيكا، كانت لا تزال تبدو نعسانة، وقهوتها الصَّباحية الأولى في يدها. عندما سمعَت عن الموضوع، جلست على سريري، وطلبت مني أن أقرأ لها جهارًا ما كتبتُه حتّى الآن. لم أكن راغبًا كثيرًا في فعل ذلك، لكنْ؛ عندما رأيت تلك النَّظرة في عينيها بدأتُ أقرأ:

"قصيدة 'أنا بلغاري' خالدة بسبب القيم العالمية التي تمتدحها، حبُّ الوطن والوطنية والفرح بكونك بلغاريًا. إنها قصيدة تعبِّر عن حبِّ الشَّاعر لبلغاريا". هذا كان ما لديَّ حتّى ذلك الوقت، ولم أكن أعرف كيف سأتابع. إضافة إلى أن ما كتبتُه لم يكن حقيقة من بنات أفكاري، كان ما قالته لنا مُدرسة مادّة الأدب في الصَّفّ، ولم تخطر لي فكرة أخرى. نظرتُ إلى مونيكا بارتياب. نظرت إليَّ بعينيها الجميلتين، وقالت بتشدّقها المعتاد: "يا له من حشو وهراء". شعرتُ بأني أتورَّد خجلًا. لم تنتقد مونيكا يوَما أيًا مما فعلتُه حتّى الآن. وكان رأيها يهمّ أكثر من أيِّ شيء آخر. ما عدا أليكس ربمّا.

سألَت: "هل تعني حقاً كل ذلك؟" التزمتُ الصمت، خافض العينين.

"لا".

---

*) إيڤان ڤازوڤ (١٨٥٠-١٩٢١): شاعر بلغاري، روائي وكاتب مسرحي. كثيرًا ما يُشار إليه باعتباره " بطريرك الأدب البلغاري".

"إذنْ؛ لماذا كتبتَهُ؟"

"هذا ما قالتْه المُدرِّسة".

"المُدرسة تحشو رؤوسكم بالهراء فقط. سوف يمحو ڤازوڤ هذه القصيدة إلى الأبد لو أمكنه الخروج من قبره، والحصول على حاسوب. هل أنت فخور بكونك بلغارياً؟ وهل تظن أن أرض أجدادنا عزيزة؟"

لم أسمع مونيكا تتحدّث يومًا بمثل هذا السُّخط، وبدا الأمر غريباً أكثر.

قلتُ: "لا أعرف".

"أنت لا تعرف لأنك لا تزال صغيرًا جدًا، ولم تدخل معترك الحياة في وطننا العزيز بعد. انظر فقط إليّ-أنا في الرَّابعة والثَّلاثين من عمري، وليس لديَّ عمل. عليَّ أن أعتمد على بعض المساعدات البائسة التي لن توصلني إلى أي مكان. ليس لديَّ تأمين صحّيّ. حمدًا لله على أمك وأبيك. ولا قدَّر الله أن أُصاب بمرض ما! كدتُ أموت في مستشفى منذ سنتين جرّاء التهاب الزائدة الدودية... لم يتمكَّن هؤلاء الحمقى من معرفة ما بي حتّى كاد أن يفوت الأوان. هل يمكنك أن تصدِّق إهمالهم اللعين واستهتارهم! فلتذهب إلى الجحيم تلك الخدمات الصّحيَّة التي يُفترض أنها لدينا! عملتُ خمس عشرة سنة كاملة. أنا مُلمَّة بالعمل على الحاسوب، أتحدّث الإنكليزية. لكنْ؛ ماذا يعني هذا؟ لا يمكنني حتّى إيجاد عمل لأحصل على قوت يومي. لأني بأيّ حال من الأحوال أعمل مقابل أجر يتراوح بين ٣٠٠-٤٠٠ ليڤ. ماذا يفترض أن تفعل بذلك القدر من المال؟ تدفع الإيجار، وفواتير الكهرباء، أو فاتورة المياه؟ لا يمكنك حتّى أن تغطّي الإيجار بذلك.. إنه بلد التشالغا(*) والفساد والمجرمين. إنه كابوس

*) تشالغا (تُعرف أيضاً بالغناء الشعبي) هو نوع موسيقي بسيط، يُنتقد بسبب كلماته وفيدويوهاته الجنسية الصريحة.

على الطرقات. كل شيء بلغاري أصيل/ أعتزّ به، أنعم به، وأهيم فيه؟! نعم، صحيح! في بلدٌ تكون فيه الفرصة الوحيدة للمرأة الشَّابّة والمؤهّلة بحياة عادية فيه هي إيجاد رجل يدعمها، لا يستحقّ شيئًا سوى أن تتركه خلفك. سأحزم حقائبي اليوم لو استطعتُ، ولن أعود أبدًا..."

قالت مونيكا تلك الكلمات الأخيرة بهدوء، كما لو أنها لم تكن موجَّهة إلي، بل لها. بقيتُ هادئًا أتصبب عَرَقًا. خمَّنتُ أن ما كانت تقوله صحيح، لكنْ؛ لم يسبق لي أن فكّرتُ فيه. سمعتُ كم كانت الأخبار كئيبة كل يوم، لكني كنتُ معتادًا عليها، حتّى إنها كانت مثل ضجيج خلفي. لكنْ؛ الآن فكرة أن تحزم مونيكا حقائبها وتغادر نهائيًا أزعجتْني، ولم أحبّها ولو قليلًا.

"لا يمكنني أن أدوِّن ذلك".

"لماذا؟" رفعت مونيكا حاجبيها.

"حسنًا.. لن يعجب المدرِّسة".

"وماذا يعني هذا؟ هل تريد أن يعجب الجميع بك، أو تفضِّل أن يكون لك موقفك؟"

ظلَّت مونيكا تُدهشني. لم يكن لديَّ فكرة عما كان موقفي. لكنْ؛ لدي فكرة واضحة جدًا بأني لا أريد أن أخيِّبها. نهضتْ وغادرتْ الغرفة دون أن تنبس بكلمة. مزَّقتُ الصَّفحة، وقلبتُ صفحة جديدة. فجأة راح قلمي يتحرّك من تلقاء نفسه.

"لو كان ڤازوڤ حيًا اليوم، ربماربمّا لن يكتب قصيدة " أنا بلغاري" . لو عاش في بلغاريا الآن لن يقول أبدًا إنه لفرح عظيم بالنسبة لي أن أدعى بلغاريًا. لو استطاع سماع التشالغا أو لو نُقل إلى المستشفى، ربمّا سوف

يعيد التفكير قبل أن يكتب" كل شيء بلغاري أصيل/ أعتزّ به، وأنعم به وأهيم فيه". هذا إن استطاع النجاة من المستشفى، وتمكّن من البقاء بمنأى عن حوادث الطرقات. في بلادنا، بلد المجرمين وقطّاع الطرق، لا تبدو أبيات "في مكان الحُرّيّة أعيش" منطقية. لو عمل بجد ليحصل على أجر قدره ٣٠٠ ليڤ ربمّا سوف يهاجر، ولن يعود أبدًا، مثل معظم البلغاريين المتعلّمين والمؤهّلين.

لهذا قصيدة "أنا بلغاري" مناسبة فقط للوقت الذي كُتبت فيه، والزمن الذي سبقه. لكنْ؛ في هذه الأيام تبدو مثل الأغاني التي اعتاد آباؤنا أن يستمعوا إليها في شبابهم، قديمة وعاطفيّة".

كانت مونيكا سعيدة هذه المرّة.

قالت: "أحسنتَ!" وتوردّتُ ثانية، فرحًا هذه المرّة.

-٩-

لا أعرف كم دام تأمُّلنا. بدا لي أنه وقت طويل جدًا. عندما فتحنا عيوننا بدت جدّتي مسرورة. تخدَّرت ساقاي. كنتُ حقًا نعسانًا أيضًا، ومتشوّقًا للعودة إلى البيت، والاستلقاء في السرير.

"إذنْ؛ ما الذي خبرتماه؟" أرادت جدّتي أن تعرف.

أجبتُ: " كان ظريفًا جدًا"، لكني لم أذكر مونيكا. كان محرجًا التَّحدث عنها بأيّ حال، بالإضافة إلى حضور أمّي، لذا؛ لم أرغب بجعلها تجهش بالبكاء، وتُصاب بانهيار عصبي آخر.

قالت أمّي بفتور: "لا شيء"، ونظرت إلى البحر.

خلُصت جدّتي: "هذا جيد باعتبارها تجربتكما الأولى، ستريان كيف أن التجربة ستصبح أعمق وأعظم مع الممارسة المنتظمة".

روَّعتني هذه الشَّذرة عن الممارسة المنتظمة حقًا. هل كانت جدّتي تخطّط لتوقظني في مثل هذا الوقت المبكّر ثانية؟

وبصورة أكثر أهمّيّة، كنتُ ذاهبًا لأستلقي في السَّرير عاجلًا، وأنام قليلًا. لكنْ؛ في هذه اللحظة نفاسه قالت جدّتي: "حسنًا، إذنْ؛ لنذهب. يجب أن نصل هناك"، وأشارت إلى بعض المقصورات على مسافة بعيدة جدًا جدًا أمامنا.

-١٠-

لم أتوقَّع أن تُسرّ مدرِّسة مادة الأدب بمقالتي، لكني لم أكن مستعدًا لما حدث. جاءت مكشّرة، وقالت إنها قرأت مقالاتنا، وإن بعضًا منَّا بذل جهدًا كبيرًا، وقام بعمل جيد حقًا. قالت ذلك، كما لو أنه كان شيئًا مزعجًا حقًا. ثمّ سحبت دفترًا، أمسكتْه بإصبعين، كما تمسك أمّي الأسمال القذرة، وقالت:

"مع ذلك، كان لإحدى مقالاتكم أثرٌ قوي عليّ".

شخصت عيون الجميع نحو ذلك الدفتر، ثمّ أدركتُ أنه دفتري. تمنّيتُ لو أني أنكمش وأختفي تحت منضدتي. الأمر الثاني الذي أعرفه هو أن عينا المدرسة الداكنتان، بحاجبيهما المخطّطان بقلم أسود سميك كانتا مثبتتين علي:

"مارتن، هلا أتيت إلى المقدّمة، وقرأت مقالتك، من فضلك!"

خرجتُ متثاقلاً من مقعدي، وتوجَّهتُ نحو مكتب المدرِّسة. كانت ركبتاي ترتعدان. الآن كان الجميع ينظرون إلي. قلَّبتُ الصَّفحات؛ لأجد مقالتي، وبدأتُ أقرأ بحنجرة جافة. تمامًا حيث انتهت المقالة كُتب بإتقان، حرف "ف" مدوَّر الزوايا وراضٍ عن نفسه. لأول مرّة أحصل على علامة ضعيف. أردتُ أن أبكي.

كان مثيرًا للاهتمام أن زملائي لم يضحكوا كعادتهم. ربمّا أحسُّوا بخطورة

الموقف. بدأت المدرسة تتحدّث ثانية. حاولت أن تبدو هادئة، لكني شعرتُ بالتوتّر في صوتها:

"مارتن، هل حقًا تعني ما كتبتَهُ؟"

بقيتُ صامتًا.

"ما هذه العَدَميَّة؟ من أين أتيتَ بهذه السَّلبية؟ هل هذا ما يعلّمونك إيَّاه في البيت؟ قل لوالديك إنَّ عليهما القدوم لرؤيتي هذا الأسبوع!"

لم أجرؤ على رفع بصري حتّى نهاية الدَّرس. مع ذلك لاحظتُ أن زملائي عاملوني بطريقة مختلفة. كان في عيونهم شيء لم أره من قبل. نظرت إليَّ أليكس بعينين لامعتين، وقالت:

"مع ذلك، أُعجبتُ بمقالتك حقًا. أنت جريء جدًا!" وارتعشت غمَّازتاها. وقلبي ارتعش أيضًا، وشعرتُ بالامتنان الكبير لمونيكا، على الرغم من درجة الضعيف التي نلتُها، لكنْ؛ حينها تذكّرتُ ما كان عليَّ أن أقوله لوالديَّ، وفجأة صار قلبي يخفق بعنف من شدَّة الخوف.

-١١-

كلانا حاولنا المقاومة.

قلتُ: "أنا نعسان. أريد الذَّهاب إلى البيت".

احتجَّت أمّي بصوت عازم قدر مستطاعها: "أمّي، إلى أين تريدين أن تأخذينا الآن؟ ألم يكن ذلك كافيًا؟ لنذهب إلى البيت، الشَّمس في كبد السَّماء الآن". كان هناك تحسّنٌ بالتأكيد.

غضبت جدّتي وقالت: "اسمعا، أيها الكسولان، أنتما تقيمان معي الآن، لذا؛ سوف تتبعان البرنامج التأهيلي الذي وضعتُه من أجلكما. بعد كلِّ ما مررتُما به، من الواضح جدًا أنه لا يمكن الوثوق بكما للتعاطي مع الأمور بمفردكما. أنتما بحاجة إلى المساعدة. ولهذا السبب أنتما هنا. هيا، انهضا!"

تردّدنا قليلًا فقط، ثمّ وقفنا، وتبعنا الجدَّة، نتخلّف عنها ببضع خطوات؛ لنبدي معارضتنا. بأي حال تقدّمتْنا الجدّة بحزم، ولم تلتفت.

مشينا على طول الشَّاطئ، نبلّل أقدامنا بالماء. مررنا بكثير من البارات والمقاهي. ثمّ تغيَّر الشاطئ. لم يعد هناك مظلات وأكشاك منقذين الآن. كان هناك عشب بدلًا منها، وكان الرَّمل أسود. كان معظم الناس الممدّدين في الشَّمس عراة تمامًا. مررنا بقنديل بحر ضخم ميت قذفه البحر. مشينا ومشينا.. عند حدٍّ معين، رأينا بعض الرِّجال العراة يعتمرون قبعات بيسبول

بيضاء جالسون في حلقة، على مقاعد صغيرة، ويلعبون الورق على طاولة صغيرة. رأيتُ شيئًا مكتوبًا بالحجارة بالقرب منهم، كان تاريخًا. ثمَّ وفيما نحن سائرون، بدأنا نرى أناسًا سود البشرة. لكنهم لم يكونوا زنوجًا.. قالت أمّي إنه ليس عليَّ أن أستخدم تلك الكلمة. أناس سود. لم يكونوا سودًا؛ لأني رأيت بشرتهم البيضاء بين الحين والآخر. لكن شيئاً أسوداً كان يكسوهم من رأسهم حتّى أقدامهم.

"جدّتي، ما هذا؟" لم أستطع الامتناع عن طرح السؤال.

قالت جدّتي باختصار: "طين".

"لماذا هم مكسوِّين بالطِّين؟"

"لأنه جيِّد جدًا لك. من أجل بشرتك وصحَّتك".

"إذنْ؛ كيف لا يفعل ذلك أحد في صوفيا؟ هل لدينا هناك طين أيضًا؟"

ضحكت جدّتي في خفوت: "هذا طين من نوع خاص، له خاصّيّة الشِّفاء. ليس لديكم منه في صوفيا".

وصلنا سريعًا إلى مكان يعجُّ بالناس المكسوّين بالطين. كانوا واقفين في الشَّمس.

"لماذا يقف هؤلاء الناس هكذا؟"

"إنهم ينتظرون أن يجفَّ الطين، هذه طريقة استخدامه. ثمّ يغتسلون في البحر".

نظرتُ إلى أمّي. لكنها بدت كما لو أنها ليست معنا، ولم تكن تصغي

إلى المحادثة قطعًا. كانت تحدِّق أمامها فقط-ليس نحو البحر، ولا نحو الشَّاطئ، لكنْ؛ نحو شيء لم نتمكَّن أنا وجدّتي من رؤيته. أردتُ أن أشدّها، وأقول لها: "أمّي، أنا هنا! أمّي، هل تحبّينني؟ أمّي، هل أنت غاضبة لأن أبي ومونيكا غادرانا؛ لأني كذبتُ على المُدرسة بشأن الذهاب إلى السينما؟ أمّي..." لم أقل شيئًا. أردتُ أن أبكي على حين غرَّة. لكننا رجال في النهاية، لذا؛ صررتُ أسناني، وابتلعتُ دموعي.

-١٢-

"مارتي، لم أفهم. كيف توصَّلتَ إلى هذه الأمور؟ والدك وأنا لا نتحدّث بهذه الطريقة. ولا نرى الأمور بهذا الشَّكل". بدت أمّي مُرتبكة، ولم تكن تلك حالتها المعهودة. على الأقلّ ليس في ذلك الحين.

التزمت الصَّمت. أضحت عادة عندي: أنظر إلى الأرض ؛لأتفادى نظرتها. كنا بمفردنا، كانت مونيكا في الخارج للقاء شخص، وكان أبي سيتأخّر في العمل.

آخر ما أردتُ فعله هو أن أخبر عن مونيكا. عرفتُ أن الوضع لم يكن إيجابيًا (ولو أن مونيكا تفضِّل استعمال كلمة أخرى -بالنسبة لها الأمر، إمّا هراء تامّ، أو إيجابي، وهذا يعني أن بلغاريا لابد أن تكون هراءً تامًا). بالإضافة إلى أنه كنتُ أشعر أنه إذا اكتشفت أمّي مساعدة مونيكا لي في كتابة مقالتي، لن تكون العواقب على مكوثها معنا إيجابية أيضًا.

"مارتي، أجبني من فضلك. لنتحدّث كصديقين".

ومتى سبق لنا أن فعلنا هذا يومًا؟ أمّي ليست صديقتي، إنها أمّي. مونيكا صديقتي؛ لأنها تتحدث إليَّ كلَّ يوم. ولستُ بحاجة لأن أحصل على درجة ضعيف؛ ليحدث هذا. لذا؛ التزمت الصَّمت.

"لماذا هذه الأفكار؟ ألا تحبّ حياتنا؟ ألا نمنحك كلَّ ما تحتاج إليه؟

ألا تحصل على كلِّ ما تريد، إن أمكن؟ لديك هاتف جوَّال، وحاسوب... ما الذي ينقصك؟"

كنتُ جالسًا بهدوء وعندما أصبح الصمت لا يُحتمَل سألتُ: "هل يمكنني الذهاب إلى غرفتي الآن؟"

تنهَّدت أمّي، وتململت.

عندما عاد والدي إلى البيت في وقت لاحق من ذلك المساء، أخبرته أمّي عن الدرجة الضعيفة التي حصلتُ عليها. سمعتُها تقول: "ما خطب هذا الطفل؟ هل علينا أن نأخذه إلى مرشد نفسي؟"

سارع والدي إلى القول: "إنَّه بخير. هو فقط يدخل سنَّ المراهقة، هذا كلَّ شيء. هو لا يحتاج إلى مرشد.

بالإضافة إلى أنه ليس أحمق، هو يرى أشياء، ولا يستطيع أن يفهم".

تفاجأتُ للغاية من ردِّ فعل والدي. توقَّعتُ أنه سيغضب. بعد قليل فتح باب غرفتي. كنتُ في السَّرير والأضواء مطفأة. أغلقتُ عينيّ، وتظاهرتُ بالنَّوم. سرعان ما عادت مونيكا أيضًا. كان لمجرّد فكرة وجودها في البيت أثراً يشبه أثر تلك الحبوب الصغيرة التي تتناولها أمّي عندما لا يوافيها النَّوم، وسرعان ما كنتُ أغطُّ في نوم عميق.

-١٣-

قلتُ لمونيكا ذلك اليوم إني أريد حقًا أن أشاهد فيلم أليس في بلاد العجائب. قالت إنها لم تذهب يومًا لمشاهدة فيلم ثلاثي الأبعاد، وإنه في وسعنا أن نذهب معًا. شغَّلتُ حاسوب والدي المحمول، وتحقَّقتُ من جداول صالات العرض. يعرضون الفيلم عند السَّاعة الرابعة من بعد الظهر، لكني أنهي مدرستي عند الخامسة.

اقترحت مونيكا: "يمكنك أن تقول إنك متوعِّك، وتغادر باكرًا".

نظرتُ إليها بريبة.

"أمّي وأبي سيغضبان".

"هذا سيكون سرّنا"، غمرتْني مونيكا.

ولم أتردَّد كثيرًا. اتفقْنا أن نلتقي بجوار المدرسة.

رمقتْني المُدرّسة بنظرة مرتابة عندما قلتُ لها إني متوعّك، لكنها سمحت لي بالذهاب رغم ذلك.

وهكذا ذهبتُ إلى السِّينما مع مونيكا.

-١٤-

مررنا بأشخاص يجفّفون الطّين في الشّمس، ووجدنا أنفسنا على طريق ترابي. عبرناه، وسلكنا دربًا خشبيًا. كان هناك مياه سوداء على كلا جانبيه، وأناس يخوضون فيها حتّى ركبهم، ويغمسون أيديهم، يغرفون الطين، ويدهنون به أجسادهم ووجوههم. كان مشهداً مريعاً بالنسبة لي. لا أعرف لماذا أحضرتنا جدّتي إلى هنا، وما كان هذا حتّى أرادت أن ترينا إياه بهذا الحماس. كان هناك قصب، وأمكن رؤية مباني بورغاس السَّكنية البعيدة، لكني لم أجدها مثيرة للاهتمام. واصلنا السَّير على طول الدَّرب الخشبي فوق المياه السَّوداء. كانت الألواح موحلة وزلقة.

حذَّرتنا جدّتي: "انتبها لئلا تنزلقا!"

خطونا خطوات صغيرة، وحاولنا أن نكون حذرين لأقصى درجة. أخيرًا وصلنا النهاية-كان هناك بركتان إضافيتان. كان الماء بلون الصدأ، وفيه كثير من الناس. كانوا مسترخين، ولم يغرقوا. تعوم أجسادهم على السَّطح. مثل التماسيح. توقَّفنا، وقالت جدّتي:

"هذه بركة مياه مالحة. إنها جيدة جدًا لصحّتيكما. سننزل هنا، بما أن تركيز الملح أعلى". وأشارت كأنها تأمرنا إلى البركة على اليسار.

قلتُ خائفاً: "سأنتظركما في الخارج". لم أرغب في الخوض في ذلك الماء الأحمر. بالإضافة إلى عدم وجود أطفال، فقط سيدات ورجال مسنين. لو كان جيدًا كما ادَّعت الجدّة لكان هناك أطفال أيضًا بالتأكيد.

قالت الجدّة: "لا تفكر بذلك، ولو مجرد تفكير! سننزل ثلاثتنا".

بدت أمّي كما لو أنها لم تعد تملك القوّة للشجار. لذا انصاعت، وخلعت رداءها الخاص بالشاطئ. لكنني قرّرتُ أن أصرّ هذه المرّة.

"لا أريد!"

قالت أمّي والضجر بادٍ عليها: "مارتي، من فضلك، لا تجادل في الأمر. لقد أتينا إلى هنا، وسوف ننزل".

لزمتُ الصَّمت، وحدَّقتُ بقدميّ.

ثمّ تحدَّث شخص ما من المياه:

"أنت فقط لا تعرف كم هو جيد، لهذا تحاول التملُّص منه. سوف يجعل الملح منك رجلًا حقيقيًا".

بحثتُ عن مصدر الصوت. كان رجلًا راشدًا أشيب الشَّعر، وله شارب. بدا فيه بعض الشَّبه من دندي(*) التمساح. من بين التماسيح. ثمّ رأيتُ التماسيح كلها تحدُّق بي، تنتظر لترى ماذا سأفعل. لذا؛ خطر لي أن النُّزول الآن بات مسألة شرف. وفعلتُ-نزلتُ أولًا، قبل أمّي وجدّتي. بدأت التماسيح كلها تصفِّق. وصل الماء حتّى خصري تقريبًا. كان القاع قاسيًا، فيه بعض الكتل تخزّ قدمي. تعثَّرتُ.

تحدّث دندي ثانية، وضحك: "أحسنت! لا نريد أن نجعل من أنفسنا أضحوكة، أليس كذلك؟ ما اسمك؟"

"مارتن".

---

*) "دندي التمساح" ١٩٨٦: فيلم أسترالي كوميدي من بطولة بول هوغان.

"اسم جميل جدًا، اسم رجل حقيقي، وما اسم أختك؟"

رأيتُه ينظر إلى أمّي.

"هذه ليست أختي، إنها أمّي".

ثمّ لم أعد راغبًا بالتحدّث إليه. بعد ذلك مباشرة نزلت أمّي وجدّتي.

قالت جدّتي، واسترخت في المياه: "الآن دعونا نتمدّد!" تبعتها أمّي.

قرفصتُ، وغمر الماء جسدي. ثمّ استرخيتُ، ولم أغرق على الإطلاق! بقيتُ عائمًا على السَّطح، كما لو أني أستخدم إطارًا مطاطيًّا للسباحة. أحببتُه. غمرتُ يدي لأتحقق من تلك الأشياء التي تسبّب الوخز. أخرجت حفنة من البلورات.

قالت جدّتي: "هذا ملح، إنه جيد من أجلك كثيرًا".

"كيف؟"

"بطرق عديدة. لكنْ؛ عليك أن تخوض أكثر من عشرين دقيقة فيه كل يوم".

"وماذا لو بقينا أكثر؟"

"لا شيء، لكنْ؛ لن يكون بهذه الجودة".

دخلتُ في النقاش امرأة شيباء الشَّعر تضع نظَّارة شمسية:

"هناك طرفة عن المياه المالحة. التقت امرأتان فيها.. قالت إحداهما: أوه، بركة الماء المالح ساعدت الكثير من الناس، رحمهم الله".

ضحكت جدّتي بصوت مرتفع. وأمّي ابتسمت أيضًا. لم أفهم ما

المضحك في الأمر. وضع الناس البلورات على كل مكان، بطونهم وأكتافهم وظهورهم وركبهم.

"جدّتي، لماذا يضعونه على أجسادهم؟"

"لأنهم يشعرون بالألم في هذه الأمكنة. لذا؛ يضعون بعض الملح لتخفيف الألم. ليس عليك أن تفعل ذلك، لا يزال الوقت مبكّراً عليك".

وضعت جدّتي بعض الملح على كتفيها، وأمّي على ظهرها. لم أضع الملح في أي مكان. فقط عاينتُ البلورات في عين الشَّمس. شعَّت بألوان مختلفة. كان هناك الأزرق والأصفر والأرجواني.

سرعان ما قالت جدّتي: "حسنًا، هذا يكفي".

توجَّهنا ثلاثتنا نحو المخرج، الذي كان في الحقيقة درجاً خشبياً، له سور، لكنه ليس آمنًا. خرجنا. كانت أجسادنا كلها برّاقة وموحلة. وعليها آثار الملح.

" كيف سنرتدي ثيابنا الآن؟" بدأت أمّي تتذمّر.

"أي ملابس؟! ماذا عن الطين؟"

-١٥-

لن أنسى ذهابي إلى السِّينما مع مونيكا. يخالجني شعور بالذنب لأني كذبتُ، لكنْ؛ أيضًا بالإثارة من حقيقة أني ومونيكا شكَّلنا فريقًا. ذهبنا إلى المركز التجاري، واشترت مونيكا بطاقة لكلٍّ منا. اشترت أيضًا الفشار وشرابًا غازيًا. بدت مبتهجة ومتأثرة مثلي، ولم أستطع ببساطة تخيّل أنها كانت وأمّي رفيقتي صفّ. كانت مونيكا مفعمة بالحيوية، كان كل شيء معها مزاحًا ولعبًا. أمي كانت متعبة وقلقة ومهمومة. شعرتُ بالحزن عليها.

لم أكن أعرف شيئًا عن التأمُّل في ذلك الحين، لكني قرّرتُ ألا أفكِّر بأمّي، وأن أستمتع فقط بالفرصة المضاعفة للاحتفال: فيلم ثلاثي الأبعاد، ومع مونيكا. كان رائعاً قطعًا! كما لو كنا جزءًا من الفيلم أيضًا، وكانت أليس معنا. كان أجمل شيء رأيتُه على الإطلاق. أحبّتْه مونيكا كثيرًا أيضًا.

سألتْني بعد الفيلم ثانية: " سيكون هذا سرَّنا الصغير، أليس كذلك؟"

أجبتُ سريعًا: "نعم"، وتورَّدتُ، لأنه بدا أمرًا جيدًا جدًا أن تتقاسم سرًا معها.

عندما عدنا إلى المنزل، أعلنت بابتسامة: "وانظروا مَن التقيت في الشَّارع في طريق عودتي من مكتب التشغيل!"

مسَّدت شعري، وكدتُ أموت من البهجة.

سألتني أمّي: " كيف كانت المدرسة اليوم، مارتي؟"

أجبت: "جيدة"، وأسرعتُ إلى غرفتي.

-١٦-

غير ممكن أبدًا! هذا كثير حقًا! لا يمكن لأحد أن يجعلني أضع هذا الطين القذر على جسدي. قالت أمّي أيضًا: "لا" و "يكفي"، لكن جدّتي استبدَّت برأيها: "أنا لن أتحرّك مقدار أنملة، إلى أن يضع كل واحد منكما القليل".

"أمّي، من فضلك، ما هذه الحركات الصبيانية؟! الشَّمس قوية جدًا، لنذهب".

"يمكنكما أن تدعاني هنا بمفردي، لو أحببتُما. لن أذهب إلى أي مكان قبل أن تضعا بعض الطين على جسديكما".

قالت أمّي: "لكنْ؛ كيف يمكن أن تبتزينا بهذا الشكل؟! لا يمكنك إرغام الناس على ذلك!"

سارعت الجدّة إلى القول: "عندما ترين ابنك يذبل أمام عينيك، حينها ستقولين لي ما يمكنني وما لا يمكنني فعله".

نظرت أمّي من حولها بعجز، وقالت بهدوء: "هيا، مارتي. لا نريد أن نزعج جدّتك".

وخطونا ثلاثتنا في الطين.

لينا

هذه الشَّمس حادّة جدًا. دماغي يذوب مثل الآيس كريم بطعم الفانيليا

الذي كنَّا نبتاعه من شارع عيد العمّال لقاء ٢٥ ستوتينكي(*). هل تذكرين ذلك؟ لم يعودوا يصنعونه الآن. كان له طعم مختلف. لا أستطيع أن أفكّر. لا أريد أن أفكّر. أريد أن أطفأئ أفكاري. أوقفها، على الأقل لفترة وجيزة... أخلو بنفسي.

كيف انتهيت هنا؟ إلى أين أنا متّجهة؟ كيف وصلت إلى هذه النقطة؟ أريد أن أعرف، لكنْ؛ لا أستطيع. لطالما حاولتُ أن أكون جيدة. أن أعيش بحسب الوصايا. ألا أستولي على شيء ليس لي.

يديه على جسدك. شفاهك. يخترقك. في بيتنا، أمام عيني... لماذا؟ غادر الشَّغف، الشغف يرحل دومًا. سوف يغادرك يوماً ما أيضًا.. ماذا أقول؟ ذات يوم؟ هذا يعني كثيرًا من الأيام. أيام كثيرة بين يديه، يعانقك. مئات الليالي والصَّباحات معًا. آلاف القبل والتَّأوّهات. ساعات لا تُعدّ في بيتي الفارغ.

البحر.. يحتشد الناس كالنحل. يزحفون ويخرجون من الرمل. حشرات ضخمة مُتعرِّقة.

ذهبنا إلى بريستول مع إيڤان منذ بضع سنوات، ودخلنا إلى كامرا أوبسكيورا. هل أخبَرك عنها، مونيكا؟ كنا هناك في غرفة صغيرة مظلمة، ننظر إلى المتنزّه والعابرين، والكلاب تركض في الأنحاء. من خلال عدسات تلك الكاميرا. كان مثل أخ أكبر(مخابرات)-تَرين، ومع ذلك، تظلّين غير مرئية. هكذا أشعر الآن. وحيدة في غرفتي الصَّغيرة المظلمة، أراقب كل شيء وكل شخص. في الخارج. عالم بالأبيض والأسود لا يمكنني التواصل معه. الاكتئاب مثل كامرا أوبسكيورا.

---

*) ليف بلغاري واحد يساوي ١٠٠ ستوتينكي.

لكن هذه الأفكار تؤلم أكثر من أي شيء. أفكار لن تتركني وشأني. بل تجعلني في حيرة من أمري. كيف، لماذا حدث هذا؟ لماذا، كلّما فعلنا الخير، عُوقبنا؟ يا إلهي، هل من خير يظل دون عقاب؟!

أخذتُكِ إلى منزلي. أعطيتُكِ كل شيء. لماذا لم يكن ذلك كافيًا؟ لماذا أخذت أغلى ما لديّ-عائلتي؟ هل كنتُ عمياء؟ أو فقط شديدة الحماقة. نعم، أنا حمقاء للغاية. أدخلتُكِ منزلي.. يا إلهي، ماذا كنتُ أظنّ؟

كنتُ أساعدك دومًا منذ أن كنَّا صغيرتين. حافظتُ عليك مثل صقر. كنتِ شقراء بيضاء ناعمة.. بلغتِ باكرًا، كبر نهداكِ. كان الأولاد يحتشدون من حولك. جذبوكِ ولكزوكِ وحاولوا دومًا أن يمسكوا بكِ ويعانقوكِ.

كنا في الصَّفّ السَّادس. في أثناء الفسحة الرئيسة. تتذكّرين ذلك؟ أنا في الباحة، اشتريتُ لنفسي وجبة خفيفة، ورحتُ أبحث عنك. مونا، مونا.. لم أجدكِ. دخلتُ مبنى المدرسة، وصعدتُ الدرج إلى غرفة المخبر.. الباب مغلق. دخلتُ، وأغلقتُ الباب خلفي بهدوء.. الغرفة فارغة. لكنْ؛ شعرتُ بأني لست بمفردي. باب مكتب المُدرسة موارب قليلًا. أقترب منه، وأسمع تنفّسًا عميقًا. كما لو أن شخصًا يصعد الدرج مقطوع الأنفاس. نظرتُ خلسة في الظلمة، ورأيتُ ظهر ذلك الأخرق من الصَّفّ التاسع.. جالساً على كرسي. كنتِ واقفة أمامه. قميصك الضيّق مفكوك الأزرار، وسروالك عند ركبتيكِ. تداعب إحدى يديه نهدكِ، والأخرى تحت تنّورتكِ. شفتاك فاغرتان قليلًا، ولا تتحرّكين. فقط يدكِ تعصر كتفه. نظرتِ نحوي مباشرة. تراجعتُ، وتوجّهتُ نحو الباب بهدوء، غادرتُ، وركضتُ نحو الطرف الآخر من الممرّ. مباشرة نحو عيادة الطبيب. قلتُ إني أشعر بتوعّك.

"تتورّدين بالحرارة، هل تعانين من الحمّى؟"

ذهبتُ إلى البيت، واستلقيتُ، ووضعتْ أمّي ميزان الحرارة تحت ذراعي. يدا ذلك التافه لا تغادران مخيّلتي، وأنت ساكنة ومقطوعة الأنفاس. أتيتِ لرؤيتي، عرفتُ لاحقًا، لكن أمّي قالت إني مريضة ونائمة. بالفعل، تقلّبتُ وتخبّطتُ طوال الليل. كان جسدي محموماً، وشعرتُ كما لو كنتُ أنا لا أنتِ مَن كانت تمسّها يدا الفتى...

أمضيتُ اليوم التَّالي في الفراش أيضًا. لا أعرف كيف سأذهب إلى المدرسة، وأنظر في عينيكِ. استجمعتُ قواي في اليوم الثالث. عانقتِني عناقًا كبيرًا، قلتِ لي إنك افتقدتِني، وسألتِني عن حالي. لم نتحدّث عمَّا رأيته. لم نفعل يومًا.

لقد كنتِ دومًا عاهرة. لماذا سمحتُ لكِ بدخول منزلي؟ بماذا كنتُ أفكّر؟!

بعد ثلاث سنوات، كنا في السَّادسة عشرة من عمرنا. طلب مني فتى أن نخرج معًا، وكنتُ أحبّه منذ وقت طويل. ساعدتِني في اختيار ملابسي. ثمّ وضعتِ لي بعض الزينة. نحن وحدنا في البيت. أنا متوتّرة. ماذا لو حاول أن يقبّلني؟ لم يسبق لي أن قبّلتُ أحدًا. هل سيعرف؟ هل سأجعل من نفسي أضحوكة؟ تقولين، تعالي سأريكِ. سندتِ خدّي بيدكِ، وقبّلتِني على شفتي. أستطيع أن أشعر بلسانك يباعد بينهما، ويمسّ لساني. استجبتُ بالغريزة للمسة. دام الأمر كله ثانية، لكن قشعريرة سرت في جسدي. جيد جدًا ستتدبّرين أمركِ.

هذا ما أنت عليه، عاهرة!

لكني لا أزال غير مدركة. لماذا زوجي من بين كل الرجال؟ كان في وسعك الحصول على أي شخص. لماذا رجلي؟ يديه تمسكان بك..

وجسدي، مهمل ويعوم مثل طوافة في ذلك الماء الأحمر العفن. ما حاجتي إليه؟ ما الذي عليَّ أن أفعله به؟

أول فتى تبادلتُ معه القبل، وجعلني امرأة، يودّعني عند محطَّة القطار. أنتِ هناك أيضًا. لطالما كنَّا معًا، نحن الثلاثة، خلال تينك السَّنتين الأخيرتين. لكني ذاهبة للدراسة. وأنتما باقيان. قبَّلني الفتى قبلة طويلة، هامسًا إنه يحبّني. عانقتِني بشدّة. شفتاك ترتعشان وعيناكِ دامعتان. مسحتُ دمعة بطرف أصابعي. لوَّحتُ لكما من القطار. تجفّف الريح أصابعي، هل جفّفتْ عينيك جيدًا؟

زارني آسن في المدينة الجامعية(*). نمنا على سريري في غرفة تقاسمتُها مع فتاتين أخريين. مارسنا الحبَّ في الصَّباح في أثناء تغيبهما لحضور المحاضرات، بكل شغف مقطوعي الأنفاس. بعد ذلك، لم نتبادل الرسائل أو نتحدث على الهاتف إلا فيما ندر. وقلَّتْ لقاءتنا أيضًا. كتبتِ لي أسبوعيًا رسائل طويلة وعاطفية أيضًا. قرب نهاية سنتي الدراسية الأولى، كنتُ أستعد لأحزم أمتعتي لأعود إلى البيت في بورغاس لقضاء عطلتي الصيفية. وصلت رسالتك قبل يوم مغادرتي تمامًا. تقولين إنَّك أخيرًا وقعتِ في الحب، وإنك سعيدة جدًا، لكن سعادتك لن تكون مكتملة دون مباركتي.

مباركة؟ ما خطبك؟ متى كنتِ بحاجة إلى رأيي في الرجال الذين مرّوا في حياتك، واحدًا بعد آخر، مثل مسافرين يغيّرون القطارات في محطة وسيطة؟ لكنْ؛ هذه المرّة الأمر مختلف. لا أعرف كيف أقول لك ذلك. أنت تعرفينه جيدًا. في الحقيقة جيدًا جدًا. اتَّسعت عيناي بالعجب. مَن يكون؟ آسن. إنه آسن. ضحكتُ. نعم، صحيح. أيًا يكن! آسن! لكنك لا تضحكين. إنها ليست مزحة، لينا، إنه آسن. هل يعرف؟ أنتما معًا. لقد تزوّجتُما.

(*) Studentski Grad: تعني بالتحديد بلدة الطلاب، منطقة في صوفيا يقع فيها الحرم الجامعي لمعظم الجامعات.

من فضلك، لا تغضبي، من فضلك. أنت في صوفيا، لديك حياة أخرى هناك. أنتما الاثنان ليس لكما مستقبل. افتقادك هو ما جمعنا. نحن كلانا نحبّك كثيرًا. أنتما تباعدتما، أليس كذلك؟ كنت تفكّرين بهجره هذا الصيف، أليس صحيحًا؟ نعم، هذا صحيح. إذنْ؛ لماذا يؤلمك كثيرًا؟

إذنْ؛ مونيكا أخبرتك.. فعلت. لماذا لم تخبريني؟ منذ متى؟ سبعة أشهر. لا، ستة إذا حسبنا منذ.. اخرسي! لا أريد أن أعرف؟ لماذا لم تخبريني؟ كنتِ قلقة كيف سأتلقّى النبأ؟ لكنك لم تكوني قلقة عندما نمتُما معًا وكذبتُما عليّ؟ لا تقولي ذلك. أنت قاسية. ما الذي يفترض بي أن أقوله؟ تعلمين أن لا مستقبل لعلاقتنا. لقد تباعدنا. أعرف. قالت لي مونا. أنت لا تحتاجين إليها؛ لتعرفي ذلك. إنه ليس خطأها.

لا، لم يكن يومًا خطأكِ. أبدًا، أبدًا. والآن، وفيما أنت تغطّين في النوم وتستيقظين مع زوجي، ليس خطأك أيضًا.

كل تلك القذارة تثير غثياني. أفضِّل الأخرى. القذارة التي أدهن بها جسدي الآن. أريد أن أجعل جسدي قذرًا حقًا بلمح البصر. وحينها آمل فقط أن أتمكّن من غسل القذارة المكبوتة بداخله مع الطّين في الخارج.

ألم تُعلِّمني الحياة شيئًا؟ لماذا سمحتُ لكِ بدخول بيتي؟ يا ربّ، بماذا كنتُ أفكّر؟ إذا فعلتِها مرّة ستفعلينها ثانية.

يطلب مارتن مني شيئًا، لكني لا أستطيع سماعه. ماذا؟ يبدو كثير الشَّبه بوالده.

فتنتِ روحه أيضًا. أخذت مني كل شيء، كل رجالي-حبيبي وزوجي وابني. ألم يكن هناك رجال آخرون، لتسعين خلف رجالي؟

بدأت الشَّمس تسفع الطين على جسدي. قشرة طينية. أشعر كأني حيوان زاحف.

لم أكتب لك ثانية قط. لم آتِ إلى حفل الزفاف. لم أقدِّم التهاني. كتبتِ، وكتبتِ و...توقّفتِ. إلى أن ظهرتِ في صندوق رسائل فيسبوك اللعين.

أعرف أنَّ الأمر لم يكن يتعلّق بك أنت فقط. لو كان كذلك، ما كنا لنكون هنا الآن. بل في البيت. مع إيڤان. لقد أغويتِه، أليس كذلك؟ بهاتين الشِفتين والعينين والثياب الضيقة. لكنه استسلم. استسلم في بيتنا.

متى يغادر الحبّ؟ حبّنا-متى غادر؟ متى كفَّ عن النظر إليَّ، وأنا أتحدّث إليه؟ متى كفَّ عن رؤيتي؟ لا أتذكّر. العمل والطفل والمنزل. تراكم التعب يومًا بعد آخر، وفي المساء كل ما تحتاجه هو حضن لتخلد إلى النوم. ضعفت رغبة الواحد منا بالآخر خلال السَّنة المنصرمة. تحوَّل الشَّغف إلى موافقة ومعرفة وعطف. هل ذلك حبّ؟ هل الحبّ عِشرة؟ معرفة؟ لقد أغويتِه، هذا جلُّ ما أعرفه. لكنْ؛ هل الجنس كل شيء؟! هل الرجال بهذه السذاجة؟! رجلي أيضًا-ولم يكن يبدو أنه من النوع السَّهل.

أوه، سوف يطفح به الكيل منك، ويعود. من أجل الطفل، إن لم يكن لأي شيء آخر. لكنْ؛ ماذا لو لم يعد؟ الفكرة تخنق، إنها تقطع أنفاسي. أريد أن أتخلَّص منها كلها في الطين. ليغسل البحر أفكاري، ألمي، وأنا...

-١٧-

لم يقيَّض لي أن أعرف أن أمسيتنا العظيمة في السِّينما كانت أيضًا الأخيرة. أقامت مونيكا معنا حوالي شهرين. كانت الأوقات سعيدة عندما كنَّا نحن الأربعة في البيت. كانت الصَّباحات (إذا كانت المدرسة مسائية) والمساءات (عندما كانت المدرسة في الصَّباح)، عظيمة بما لا يصدَّق عندما كنتُ بمفردي مع مونيكا. تحدّثتُ إليها عن كلِّ شيء ولم أدرس كثيرًا. أيضًا أحببتُ حقًا الأمسيات عندما كنا نجتمع كلنا إلى طاولة العشاء.

قبل ذلك، كانت أمسياتنا مملّة جدًا. تحاول أمّي أن تخبر أبي عن بعض الأمور التي حدثت معها، يشاهد أبي التِّلفاز، ولم أكن مهتمًا لا بقصص أمّي المتعلقة بالعمل ولا بالأخبار. والآن صار لدينا محادثات حقيقية. كان أبي نبيلًا مع أمّي ومونيكا، شارك في محادثاتهما، ولم يلقِ ولو بنظرة على التلفاز. تحدّثوا عادة عن مونيكا وعن معاناتها في البحث عن عمل بسبب الأزمة. ومن ذلك، فهمت أن مونيكا ستبقى معنا مزيدًا من الوقت، لذا؛ كنتُ سعيدًا حقًا.

لم أفهم ما هي الأزمة التي يتحدّث عنها الجميع بالضَّبط، لكني عرفتُ بأنها لم تكن جيدة على الإطلاق. لكنْ؛ مع ذلك بدأتُ أحبّها؛ لأنها تركت لي مونيكا. كانت الأزمة صوت مونيكا العذب، وابتسامتها المشرقة في بيتنا.

لكنْ؛ حينئذٍ كذبتُ هذه الكذبة الصغيرة من أجل الذَّهاب إلى السينما.

وبينما كنا نتناول العشاء رنَّ هاتف أمّي المحمول. تحدَّثت بجدّيّة، وهي تنظر إلي.

"أوه، حقًا؟ لا، إنه بخير. سأتحدّث إليه. شكرًا على اتصالك. أفهم. ليس لديّ فكرة. نعم.. جيد. أمسية سعيدة".

عندما انتهت المحادثة، ظننتُ أن وجه أمّي كان شاحبًا أكثر من المعتاد.

قالت بصوت خائبٍ للغاية، وهي تحدّق في عيني: "لم تحضر درسيك الأخيرين".

نظرتُ إلى الأرض.

"أين كنتَ؟ لماذا قلتَ بأنك لستَ بخير كذبًا؟"

ارتسمت على وجه أبي أيضًا ملامح الجدّيّة والحزم.

"هل كذبتَ على مدرِّستك؟!"

شعرتُ باحمرار وجهي، ولم أجرؤ على رفع بصري.

"ذهب إلى السينما معي". خرجت كلمات مونيكا دون سابق إنذار. وكما لو أن أحدًا صبَّ دلوًا من الماء البارد على أمّي وأبي.

"هل تقصدين أنك جعلتِه يكذب على المُدرّسة؛ ليذهب معك إلى السينما؟" لم أعهد والدتي تتحدّث يومًا بصوت بهذه الحدّة. إلا إذا حسبنا تلك المرّة الأخرى، لكنْ؛ حتّى حينها لم يكن بهذه الحدّة. الآن كان حقًا كالشَّفرة.

قالت مونيكا بتشدُّق عذب: "أوه، هيا، لينا، إنها ليست نهاية العالم. نحن أيضًا كنا نتغيّب عن الدروس، ألا تتذكّرين؟"

أغضب هذا أمّي تمامًا. لم أرها يومًا بهذا الشكل.

قفزت مثل نمرة أُخذ منها شبلها للتوّ: "كيف تجرئين؟ كيف تجرئين على التحدّث بهذه الطريقة أمام طفلي؟ عندما تُنجبين، ويتوجّب عليك أن تربي طفلًا بنفسك عندها يمكنك أن تربّيه بالطريقة التي تناسبك! لكنْ؛ أنا أمنعك من حشو رأس ابني بالهراء!"

تدخّل أبي، وقال: "اهدئي لينا! هي حقًا ليست نهاية العالم، جميعنا فعلنا هذا النوع من الأمور".

"ماذا!" كان وجه أمّي معقوفاً كإشارة استفهام. كانت مصدومة للغاية، نسيت غضبها.

"أنت إلى جانب مَن؟ هل تفهم ما هو على المحكّ هنا؟ وكم هذا مثير للسُّخط؟ هذا عن ابنك، وأنت تقول لي ليست نهاية العالم؟"

"لينا لنكفّ عن هذه الدراما..." حاول والدي مرّة أخرى.

"الدراما؟ قالت لي مُدرّسته إنَّ مارتن لم يكن جيدًا في المدرسة مؤخّرًا. كنا أنه أيضًا حصل على درجة ضعيف في الأدب، تعرف جيدًا. أو أن هذا ليس نهاية العالم أيضًا؟"

"حسنًا، فهمت"، قلبت مونيكا شفتها، بدأت شفتاها ترتعشان، دمعت عيناها.."هذا خطئي". وبدأت الدموع تسيل على وجهها الشَّاحب.

المضحك في الأمر هو أني كنتُ تواقًا لمعانقتها وتعزيتها هي لا أمّي.

أخذت أمّي نَفَسًا عميقًا كأنها تمنع انفجارًا غاضباً آخر، ثمّ قالت لمونيكا بهدوء، لكنْ؛ بحزم:

"هذا يكفي. أريدك أن تغادري بيتي".

نظرتُ إلى مونيكا هلعاً. ازداد شحوبة وجهها. لم تقل حرفًا. كانت فقط تنظر إلى أبي، بإلحاح وبعينين دامعتين. سعل أبي: "مارتن، اذهب إلى السرير، تأخَّر الوقت".

نهضتُ كما لو أني دمية ميكانيكية. لم أستطع النظر في عين أيّ منهم. تمتمتُ قائلًا ليلة سعيدة، وذهبت إلى غرفتي.

فكّرتُ: "سيعتني أبي بكل شيء الآن، وعندما أستيقظ لن يتذكّر أحد تلك الأمسية. وسنكون سعداء مع بعضنا ثانية".

كنتُ متعبًا، وخلدتُ إلى النَّوم فوراً.

-١٨-

لذلك الطِّين رائحة نتنة بصورة مريعة تشبه رائحة البيض الفاسد. شددتُ وأمّي أنفينا، بينما كنا نرشّ به جسدينا، لكن جدَّتي لم تهتمّ. جاءت لتقديم المساعدة، ولم يكن ممكنًا التعرّف إليها عمليًا. قالت إننا لم نضع قدرًا كافيًا. غرفتُ حفنة من الطين النتن الدهني الملمس، وبسطتُه على جسدي. ثمّ وضعتُ باحتراس القليل على وجهي. فعلتُ الأمر نفسه مع أمّي. أصبحنا ثلاثتنا ملوّنين بالأسود. جعلني مجرَّد النظر إلى أمّي وجدّتي أنفجر ضاحكاً. عدنا إلى الشَّاطئ من حيث أتينا من قبل. نظر الناس إلينا، وشعرتُ ببعض الإحراج. أشار فتى صغير إلينا، وسأل والده: " أبي، أبي، ما هذا؟"

قال بحدَّة: "طين"، كما قالتها جدّتي تمامًا.

ابتسمتُ له، واختفى خلف والده. لابد أني كنتُ مخيفًا. بدت هذه فكرة جيدة، لذا؛ ابتسمتُ ثانية. هذه المرة ابتسامتي الداخلية. قالت لي مونيكا إن لكل شخص ابتسامة خارجية وأخرى داخلية. قالت إن الخارجية للعالم، ونرسمها على وجوهنا حتّى لو لم نكن نشعر برغبة في الابتسام. بينما الداخلية حقيقية، وأحيانًا حتّى لو لم نبتسم على وجوهنا يمكننا أن نبتسم من الداخل.

عندما جفَّ الطين-بقرار من جدّتي-نزلنا إلى البحر، وبدأنا نغتسل. ساعدتني جدّتي أولًا، ثمّ غسلتْ نفسها.

كانت أمّي نظيفة الآن. أزالت الطين كله، وراحت تتحسّس بشرتها.

"إنه فعّال".

أجابت جدّتي: "انتظري حتّى تري ما يحدث بعد المرّة الرابعة عشرة"، رحنا أنا وأمّي نتبادل نظرات الذعر.

-١٩-

لم توقظني أمّي ذلك الصَّباح للذهاب إلى المدرسة. استيقظتُ بنفسي. كانت الشَّقة هادئة للغاية. نهضتُ وذهبتُ إلى غرفة الجلوس. لم يكن هناك أحد. توجَّهتُ إلى غرفة نوم أمّي. عندما اقتربتُ من الباب، سمعتُ صوت نحيب. فتحتُ الباب بحذر. كانت أمِّي وحيدة في السَّرير. تضمُّ وسادتها، وتبكي بصوت عال. كان وجهها أحمر، وعيناها متورّمتين. ذهبتُ إليها، وعانقتُها. لم تفعل شيئًا. بدأت تبكي بشدّة أكبر.

"أمّي، لماذا تبكين. لماذا تبكين، أمّي؟ أين أبي. و مـ..؟"

"غادر، غاااادر. غادر معها. غادرا كلاهما..."

"إلى أين ذهبا؟"

"لا أعرف، لا أعرف إلى أين... والدك... تركنا... والدك.."

استمرَّت أمّي بالنشيج.

"متى سيعود؟"

"هو لن... لن يعود.."

بدأت أمّي تبكي بشدّة أكبر أيضًا. ذهب أبي. لم يترك أمّي فقط، بل تركني أيضًا. لم يعد لديَّ أب الآن. ومونيكا تركتْني أيضًا. عندما فهمتُ

كلَّ شيء، بدأتُ أبكي أيضًا. ثمّ جذبتْني أمّي إليها، وبكينا معًا لوقت طويل. لم أذهب إلى المدرسة ذلك اليوم. عندما توقَّفتْ عن البكاء قليلاً، ونهضت؛ لتحضر لنا فطورًا، اتصلت أمّي بمدرّستي، وقالت لها إني متوعّك. لم تذهب إلى العمل أيضًا. بقينا في شقّتنا الفارغة وحزنَّا على ولادة حياتنا الجديدة الفارغة.

-٢٠-

نحن عائدون سيرًا إلى بيت الجدَّة. الشَّمس في كبد السماء الآن وحارّة جدًا. لا نملك المال؛ لكي نستقلَّ سيارة أجرة. هذا ما قالته أمّي. لهذا نحن نسير. وصلنا إلى بيت الجدَّة متعبين. حلَّ وقت الغداء تقريبًا، ولم أكن قد تناولتُ الفطور بعد.

وعدت الجدّة: "غدًا سوف نجلب الشَّطائر".

غدًا؟ يبدو أنها جادَّة في جعلنا نفعل هذا كل يوم! أملتُ أن تردَّ أمّي. لكنها لم تقل شيئًا. بدأت جدّتي بتحضير الغداء. الأرز مع الخضار.

سألتُ: "ماذا عن اللحم؟"

"انسَ أمر اللحم! هنا معي، سوف تتَّبع حمية صحّيّة".

لم يبقَ لدي قدرة على الجدال. كان واضحًا أن هذا ما ستجيب به جدّتي. هي جلفة حقًا. لماذا لا تكون أمّي صارمة، وتوقف هذا العذاب؟ لكنها بقيت هادئة، وهي تعلِّق بذهن شارد ملابس السِّباحة والمناشف؛ كي تجفّ.

جلسنا إلى الطاولة. الأرز ليس شديد السوء، أو ربمّا كنتُ جائعًا. كان يمكن أن يكون أفضل بكثير مع بعض السَّلامي أو النقانق على الأقلّ. محمَّصة قليلًا، وعليها الجبنة. لكنْ؛ كان عليَّ أن أرضى بقسمتي من الأرز.

سألتُ جدّتي: "ماذا عن الخبز؟"

قالت جدّتي: "مَن يأكل الخبز مع الأرز؟" وهي تصفّق بيديها. بهذا انتهى النقاش.

بعد الغداء، استعدّيتُ للسرير، وخلدتُ إلى النوم مباشرة.

-٢١-

أيقظتني أمّي في اليوم التّالي للذهاب إلى المدرسة كالمعتاد، حضَّرت لي الفطور، وعادت إلى السرير. ذهبتُ إلى غرفة نومها بعد أن أنهيتُ طعامي. دخلتُ محترسًا. كانت ممدّدة على جانبها، وعيناها مفتوحتين، كانت تحدِّق أمامها.

"ألن تذهبي إلى العمل؟"

"لا. أخذتُ إجازة عدّة أيام".

عندما عدتُ من المدرسة وجدتُ أمّي على حالها في غرفة نومها.

قالت لي بصوت متعب: "يوجد حساء الفاصولياء، هل يمكنك أن تخدم نفسك بنفسك؟"

"نعم. سأفعل. هل أنت مريضة؟"

"لا، لستُ مريضة، أنا متعبة قليلًا".

تناولتُ الغداء، وبدأتُ أكتب وظائفي. لم تأتِ أمّي إلى غرفتي حتّى المساء. ظهرت فقط عندما حان وقت العشاء.

"ألن تأكل؟"

"لستُ جائعًا".

لم أعرف ماذا أقول لها سوى ذلك. أردتُ أن أجعلها تشعر بتحسُّن. وأعدها بأني لن أتركها أبدًا. أن أقول بأنها ليست الملامة، بل كذبتي. لكني الكلمات غصّتْ في حلقي.

-٢٢-

عندما استيقظتُ، سمعتُ أصواتًا خافتة في غرفة الجلوس. ذهبتُ لأتحقَّق، وكنتُ لا أزال ناعسًا. جاء الخال ستيفان لزيارتنا. خالي يصغر والدتي بسنتين؛ أي أنه في الثَّانية والثلاثين من عمره، لكنه لا يزال عازبًا. خالي كاتب، نشر كتابين، وحصل على جائزة وطنية عن أحدهما. تقول أمّي إنه مشهور. لطالما كنتُ وخالي صديقين حتّى لو لم نكن نرى بعضنا بعضًا كثيرًا.

عندما كنتُ صغيرًا كان يحملني على رأسه، ويدور حول الغرفة قائلًا إني طيَّارة صغيرة، فأضحك بشهية. أخذني منذ بضع سنوات إلى جبل ستراندزا. قضينا الليل في بيت جدّي، وفي اليوم التالي، اتصل بوالديَّ ليسألهما إذا كان بوسعنا الذَّهاب. بالفعل سمحوا لي بالذهاب، ولو أنهم استنبطوا حزمة من القواعد. وافق خالي على كل شيء، وأخذني إلى نهر فيليكا.

اصطدنا السَّمك، وتحدّثنا عن الحياة، رجلًا لرجل. كان يبين ويشرح كل شيء دون أن يشعرني بأني صغير. اصطدنا خمس سمكات. وسُررتُ حقًا، لكنْ؛ ذُهلتُ عندما قال إنَّ علينا أن نُطلقها.

"عليك أن تكون قادرًا على القيام بالمبادرات، مارتي. أن تكون كريمًا وإنسانيًا". هذا ما قاله، وتركناها. هزَّت أذنابها الفضّيّة، وذهبت لتعتني

بشؤونها السَّمكية. شعرتُ بالفخر لأننا منحناها حياة ثانية. عندما عدنا ضحك والدي علينا. تندَّر قائلًا إننا "صيادي سمك مزعومين". نظرنا أنا وخالي بعضنا لبعض، ولم نقل شيئًا. شعرنا برغبة في الضَّحك.

سعدتُ حقًا لرؤيته الآن أيضًا. لم أظهر هذا حقًا، لكني لم أشعر بالسعادة منذ فترة. بدا أنه سُرَّ لرؤيتي أيضًا. عانقني وداعب شعري.

قال: "مرحبا، يا رجل! لقد كبرتَ! انظر إلى نفسك!"

استمتعتُ بكل ذلك. سألني وسأل جدّتي عن أحوالنا، دون أن يأتي على ذِكْر ما حدث. كما لو أن كل شيء على ما يرام، وأن والدي كان ينتظرنا في صوفيا. حدّثتُه عن المدرسة، عن مُدرّسة الرياضيات اللئيمة، وعن تسريحة أليكس. أصغى إليَّ بانتباه، طرح أسئلة بين الحين والآخر، وأخيرًا قال: "هل قرّرتَ ماذا تريد أن تصبح؟" ودون أن أفكّر في الأمر قلتُ: "كاتب مثلك". من أين أتى هذا؟ لم أفكّر في الأمر أبدًا، جاء كُلّيًا من اللا مكان.

قال خالي: "هل تكتب؟ دعني أقرأ شيئًا".

أجبتُ متلعثمًا: "ليس بعد، لم أقرّر بعد عمّ سأكتب".

اقترح خالي: "من الأفضل أن تبدأ بتدوين يوميَّات عن أمور مثيرة للاهتمام حدثت لك، ستتطوّر كتابتك بهذه الطريقة".

هذه فكرة جيدة. لا أعرف لماذا لم أفكّر بذلك من قبل. ربمّا لأني لم أعلم أني أريد أن أصبح كاتبًا، والآن عرفتُ. لكني تذكّرتُ درجة ضعيف التي نلتُها.

قال خالي: "أمر تافه، درجة ضعيف! هل تعلم أن إيڤان ڤازوڤ شخصيًا نال درجة ضعيف عن فرض كُتُبه عن "تحت النير"؟"

أنا لا أصدّق ذلك حقًا. يقول خالي أيّ شيء؛ ليجعلني في مزاج أفضل.

واصل قائلاً: "نعم. كان ابن أخيه لاعب كرة قَدَم متحمّساً، وكان عنده مباراة هامة قادمة. بأيّ حال، تطلَّب الأمر كتابة مقالة عن " تحت النير" للمدرسة. عرض ڤازوڤ عليه أن يكتبها من أجله؛ ليتمكّن من المشاركة في تلك المباراة. وكتبها. تخيّل! وضعت المُدرّسة درجة "ف" كبيرة حمراء عليها!" لم أستطع حقًا أن أتخيّل كيف حدث هذا، لكن خالي بدا في غاية الجدّيّة. ربمّا يقول الحقيقة. بدأتُ أشعر بالسعادة فجأة. إذا نال ڤازوڤ درجة ضعيف على ما كتبه، ما الضير في أن أنالها أنا؟ مع ذلك كان كاتبًا عظيمًا. لذا؛ لديّ فرصة أيضًا!

بقي خالي لتناول العشاء. ما إن جلسنا حتّى ران الصَّمت. تبادل هو وجدتي بعض الأحاديث لكن أمّي لم تقل شيئًا فعلاً. خبَت المحادثة وكانت قعقعة أدوات المائدة كل ما يمكن سماعه.

-٢٣-

أيقظتْنا جدَّتي في اليوم التالي باكرًا جدًا من جديد. رفضت أمّي الذَّهاب إلى البحر. كان الشَّاطئ يعجُّ بأناس يتمرّنون. عرضت جدَّتي لنا بعض تمارين اليوغا الجديدة، لم تكن بالغة الصعوبة. في أثناء التَّأمل داهمتْني الأفكار. لم أعرف السَّبب، لكني تخيّلتُ أني على الشَّاطئ مع أمّي وأبي، وكان يعلّمني السِّباحة. حزنتُ، وحاولتُ ألا أفكّر. لكنْ؛ كان الأمر صعبًا. بعد أن انتهينا، توجَّهنا إلى بركة المياه المالحة.

تمامًا كما سبق، كان الرجال العراة يلعبون الورق، وتاريخ اليوم مكتوب بالأحجار على الرَّمل. رأيتُ في بركة المياه المالحة كثيرًا ممّن رأيتُهم البارحة. من الواضح أننا لسنا المجانين الوحيدين بما يكفي لنأتي يوميًا. هذه المرّة لم أحتجّ، ونزلتُ مباشرة. كان دندي هناك أيضًا. ابتسم لي، وحيَّاني بقوله "مرحبًا". أشحتُ ببصري، لكنْ؛ حينها ارتأيتُ أنه من الفظاظة أن أبقى صامتًا، وتمتمتُ قائلًا: "مرحبًا".

واصل: "ألستَ خائفًا اليوم؟"

أجبتُ: "لم أكن خائفًا البارحة أيضًا".

"سترى كم ستصبح سليم البنية طوال الشتاء، عندما تنهي من عشر إلى أربع عشرة غطسة".

لم أجب. نظرتُ من حولي باحثًا عن أمّي وجدّتي، ورأيتُهما ممدّدتين

على بُعْد بضع أقدام. ذهبتُ نحوهما، واسترخيتُ في الماء أيضًا. جذبت جدّتي أمّي بلطف نحوها، وبدأت تُدلّك ظهرها وعنقها، فهدأت أمّي. بدأتُ أحرّكُ يديّ في الماء، وحملني. عمتُ مثل ورقة متساقطة. وشعرتُ بالخفّة حقًا. لم أشعر بمثل هذا الإحساس منذ وقت طويل.

في طريق عودتنا، بعد أن كنا قد تغطّينا بالطين بسخاء، بدأت جدّتي تهمس لأمّي بهدوء:

"ينفطر قلبي عندما أراكِ هكذا. حزينة وكئيبة ومتضايقة. تماسكي! ليست هذه نهاية العالم! أنت شابَّة، لديك طفل وعمل ومكان تعيشين فيه. ستلتقين شخصاً آخر. هناك نساء في حالات أصعب بكثير. لماذا تستسلمين؟"

بدت كأنها آلهة حكمة كبيرة سوداء.

كانت أمّي صامتة. قالت بعد حين: " كل شيء سيكون على ما يرام عندما يعود ڤانكو".. بدت خاوية.

توقَّفت جدّتي. أبطأت أمّي أيضًا، والتفتت إليها.

"لينا! هو ليس بعائد. وحتى لو ركع على ركبتيه، وتوسَّل إليك أن تعيديه، ليس عليك أن تفعلي. هذا..." نظرت جدّتي إليّ، أخذتْ نَفَسًا ولم تقل شيئًا. بدا أنها كانت على وشك أن تقول شيئًا سيئًا عن أبي.

"تركك تعتنين بالطفل بمفردك. لماذا؟ من أجل ساقين ونهدين. ولم أتحدث حتّى عن صديقتك الفاسقة تلك التي لطالما كانت هكذا. لماذا تركتها تبقى؟ ما حدث قد حدث. انسي الأمر، واستمرّي في حياتك. لديك طفل، أنت لا تزالين شابّة".

تدفّقت الدموع من عيني أمّي، تركت أثرًا في الطين الجافّ على وجهها، وجرت على ذقنها. حدّقتُ بها، وللحظة نسيتُ ما كانت تقوله جدّتي، أبعدتُ نفسي عن الشّاطئ، وامتزجتُ بالدموع. لم أسمع أو أرَ شيئًا سوى أثر الدموع في الطين على وجه أمّي. فكّرتُ أنها بدأت تشعّ، ونشر ضوؤها شعورًا بالهدوء والسعادة في داخلي.

لم ينتابني يومًا مثل هذا الشعور. رأيتُ في اللحظة التالية كما لو أني مستيقظ من غفوة، تنزل أمّي على الرمل، وتغطّي وجهها بيديها. شعرتُ بالذنب من سعادتي؛ لأنها نجمت عن معاناتها. في الوقت نفسه، عرفت أن كل شيء سيكون بخير. الآثار أخبرتْني.

بدأت أمّي تنتحب من جديد: "لا أريد أن أعيش. لا أريد. أيّ حياة هذه؟ لماذا هذا الألم؟ لماذا؟" كانت الأمواج تغسل قدميها، وتزيل الطين عنهما.

جلست جدّتي بتثاقل على الرمل قربها، وعانقتها. ثمّ ربتت على رأسها بيديها المكسوّتين بالطين، وتحدّثت إليها بلين: "لا أريد أن أسمع منك مثل هذا الكلام. كل شيء سيكون بخير. سيمضي.. ستكونين بخير. ما من ألم لا يمكن تجاوزه. لا يوجد. وستعودين لحياتك ثانية".

هدأت أمّي تدريجيًا.

قالت جدّتي وهي تحاول أن تبدو مرحة، وهي تنظر إليّ: " لنذهب الآن للسباحة!"

نزلنا ثلاثتنا إلى البحر، وبدأنا نزيل الطين عن أجسادنا.

لينا

ألم تتعبي، يا أمّي، من دعمك الدّائم لنا؟ خلال كل تلك السّنوات..

من أن تكوني قوية، ألم تسأمي؟ من أن تدفعينا وتساعدينا، كما لو أننا أطفال. تفهَّمي وجود مثل تلك اللحظات، أمّي، هي موجودة فقط! لحظات لا تريدين فيها أن تعرفي الحقيقة، لا ترغبين بتقبّلها، لا يمكنك، ليس لديك القوَّة.. ما حاجتي إلى الحقيقة، لماذا تقذفينها في وجهي؟ كيف تساعدينني بذلك؟ ماذا لو اعترفتِ بأنه ليس عائدًا؟ أعرف أنه لن يعود. لكني لا أريد أن أعرف.

ومَن يدري؟!... يمكن أن يحدث أيّ شيء. هل من السَّهل حقًا نسيان كل هذه السنوات والطفل الذي أنجبناه؟ أن تديري ظهرك إلى الماضي بحركة واحدة؟ لا أريد أن أصدّق ذلك. لا أستطيع. وحتّى لو استطعتُ، أحتاج إلى الوقت. لن يحدث في يوم أو شهر. أحلم به كل ليلة منذ مغادرته. أليس لدينا الحقّ أحيانًا بأن نكون ضعفاء؟ أن نستسلم؟ ألسنا نساء؟ ألسنا بشرًا؟ لكنْ؛ لا، ليس أنت، أمّنا الخارقة! حتّى لو بدأت حياتك بهجر أمك لك. ثمّ ثمانية عشر عامًا في ميتم.

بعد ذلك، العمل في متجر للبقالة، وثلاثون عامًا من الزواج ومجالسة الأطفال وزوج مريض دوماً. دومًا نشيطة ومفعمة بالتفاؤل. تذهبين باستمرار إلى مشافٍ مختلفة مع أبي في سنواته الأخيرة. دفنتِه بحفنة من الدموع، وواصلتِ المضي. قائد حقيقي. فقط تبيّن أن قواتك ليست مناسبة.

أوّلهم توفيّ مصابًا بمرض. الثاني أثبت عدم قابليّته للحفاظ على زواجه. الثالث لم يتزوّج أصلًا. وأنت تواصلين الإصرار على التقدّم إلى الأمام، كما لو أن حشدك لقوّاتك يكفي كي يلحقوا بك. حسنًا، ليس تمامًا! ليس كافيًا. وهذه حقيقة أخرى. تبيّن أن جنودك ضعفاء، أمّي.. هذا أمر يجب أن تتفهّميه. وأن تدعينا نتدبّر أمرنا بالطريقة التي نستطيع.

أن نلعق جراحنا مهما استغرق من وقت، بدلًا من فركها بالكحول

متخيّلين بأننا بهذا نجعلها تشفى بسرعة أكبر. يوغا، تأمُّل، السَّير تحت الشَّمس اللاذعة، بركة المياه المالحة، الطين، أشعر كأني حملة من حملاتك الصليبية لإنقاذ العالم. لكني لستُ قضية، يا أمّي. أنا ابنتك، ولا أحتاج إلى طاقتك ومساعيك، بل إلى أن أُترَكَ وشأني بدلًا من ذلك. يمكنكِ أن تجرِّبنني إلى أي مكان تريدين، لكن ذلك لن يجعلني أشعر بأني أكثر حياة. لماذا لا تستطيعين أن تضعي في بالك أن هذا الجندي ميت، وعليك أن تتركيه في ميدان المعركة؟

نعم، حاولتُ في وقت من الأوقات. عندما كنتُ لا أزال أريد ذلك. عندما كنتُ لا أزال أظنّ بأني أستطيع. كنتُ رئيسة الصّفّ وأيّما شيء... لم ينجح! تعبتُ.. ليس أنا، ولا أحتاج لأن أكون بتلك الطريقة.

والأمر نفسه ينطبق على أخي. كيف لم تفهمي بأن ظلَّ جناحك القوي يمنعه من المضي في العالم؛ ليصنع عشّه الخاص؟ لأن النسور مثلك قلَّة. ومن الواضح أن من الصَّعب عليه أن يجد مثيلًا.

وبدلًا من إضاعة نفسك في محاولة جعلي جنديًا خلال سنوات، بل وجنديًا ضعيفًا، كان عليك أن تعلّميني كيف أكون امرأة، يا أمّي. كيف أستعمل قوّتي الأنثوية. كيف أحافظ على رجُلي. كيف أغويه وأغريه كل يوم، حتّى النهاية. وليكون لي، لي وحدي.

لماذا لم تعلّميني ذلك، أمّي؟

-٢٤-

كان الجوّ حارًا جدًا. بعد الشَّاطئ، أُصبتُ بدوار طفيف فيما كنا نمشي تحت الشَّمس اللافحة. طوال اليوم التالي، لم نضع قَدَمًا خارج البيت. لاحقًا في الأصيل، طلبتُ من أمّي الذهاب إلى المكتبة؛ لتشتري لي دفتر.

"ما حاجتك إلى دفتر؟"

"أريد أن أكتب".

"وماذا هنالك لتكتبه؟"

"بضعة أشياء".

شعرتُ قليلًا بالضيق؛ لأني أخبرتُ والدتي بنيّتي في أن أصبح كاتبًا. لا سيما بعد درجة الضعيف تلك. لكنْ؛ بعدئذٍ وافقتْ بحماس قليل دون أن تطرح المزيد من الأسئلة.

بقيت جدّتي؛ لتُحضّر العشاء. مشيتُ مع أمّي بصمت. ذهبنا إلى مكتبة، ورأينا طاولة الدفاتر بجانب المحاسب. رحتُ أديرها، ولفت نظري واحد في الحال. كان أحمر اللون مزخرفًا بلون أزرق شاحب، وكان مصنوعًا من مادة شديدة النعومة حريرية الملمس. أمسكتُه، وأريتُه لأمّي. أخذَتْه، قلَّبتْه، ونظرت إلى السِّعر.

قالت: "إنه باهظٌ جدًا مارتي. ثلاثة وعشرون ليف. لا يمكننا أن نُنفق الكثير على كرَّاس. سوف لن يبقى لدينا الكثير للطعام"، وأعادتْهُ.

حزنتُ، لكنْ؛ لم أقل شيئًا. ماذا في وسعي أن أقول، عندما كان واضحًا للجميع أن الطعام أكثر أهمّيّة من الدفتر؟! مع ذلك، في تلك اللحظة، كان الدفتر أكثر أهمّيّة بالنسبة لي من الطعام، وكنتُ أفضِّل أن أجوع بضعة أيام، وأمتلكه. لكني لم أناقش. لم أنبس بكلمة. شعرتُ بالخيبة والكآبة، كما كان يقول أبي. نظرتُ إلى الدفتر مرّة أخرى، وخرجنا.

اقترحتْ أمّي: "يمكننا أن نتحقّق في مكتبة الحي، ونجد لك واحدًا أقلّ ثمنًا".

لم أجبْ على ذلك أيضًا. لم أرغب بواحد أرخص. لم أرغب أيضًا بواحد أغلى ثمنًا. أردتُ هذا الدفتر.

-٢٥-

بعد أن تناولنا طعام العشاء المكوَّن من البطاطا مع البصل، وسلطة الخيار والطماطم، أخرجتْ جدّتي صندوقًا أصفر اللون، ووضعتْه على الأريكة. ذهبتُ إليها مباشرة، وبدأتُ أنظر نحوه بفضول. كانت أمّي جالسة على كرسي، ووجهها نحو المبنى المجاور لنا في الخارج.

لم تبدُ مهتمّة بالصُّندوق على الإطلاق. فتحتْه جدّتي.. كان مليئًا بالصور المصفرَّة بعض الشيء أيضًا، وبعض منها كانت زواياها مثنيَّة. بدأت جدّتي تُخرجها واحدة تلو الأخرى، تنظر إليها، ثمّ تُناولني إيّاها. لم تقل لي صور مَن كانت. تركتْني أخمِّن. رأيتُ في واحدة منها فتاة صغيرة ظريفة حقًا، تكشف ابتسامتها العريضة عن نقص عدد من الأسنان.

سألتْني جدّتي بمرح: "هل يمكنك أن تتعرّف على هذه السَّيدة الشابّة؟" ونظرتْ إلى أمّي. ظلّت أمّي جالسة في الوضعية نفسها، وبدت أنها لم تسمعها على الإطلاق.

سألتُ: "إنها أمّي؟"

"لنسألها!"

"أمّي، هل هذه أنتِ؟"

نظرت أمّي إليّ. كانت عيناها حزينتين جدًا، وكانتا تشخصان من

خلالي مباشرة. مدّتْ يدها ببطء، وتناولت الصورة. تفحّصتْها لفترة دون أن تستجيب، ثمّ أعادتْها إليَّ قائلة:

"نعم، إنها أنا".

ثمّ التفتت إلى المبنى المجاور، كما لو أنه أجمل مشهد في العالم.

ناولتْني جدّتي صورة أخرى. كانت فيها الفتاة نفسها، فقط أكبر قليلاً. في مثل سنّي.

سألتُ: "ماذا عن هذه؟"

استجابت أمّي ببطء أيضًا. أبقت الصورة بين يديها بالطريقة نفسها، أعادتْها، وكرّرتْ:

"نعم".

التفتتْ؛ لتنظر إلى الخارج.

رغم ذلك، ظلَّت جدّتي تسحب الصور، وتُريني إيّاها. كان هناك شابّة جميلة جدًا في واحدة منها. اعتقدتُ أنها أجمل من مونيكا أيضًا. عرفتُ أنها أمّي مباشرة حتّى لو لم تكن المرأة الحزينة والمتعبة في الكرسي تشبه كثيرًا الفتاة المبتسمة في الصورة.

قلتُ: "أنت جميلة جدًا، أمّي".

كدتُ أقول "كنتِ"، لكنْ؛ تداركتُ نفسي في اللحظة الأخيرة. ثمّ استدارت أمّي في الكرسي، تمططتْ، نهضتْ، وجاءت؛ لتجلس معنا. جلستْ إلى جانب الجدّة من الجهة الأخرى، وأخذتْ مني الصورة. حدَّقتْ فيها لفترة، وبدأت الدموع تجري من عينيها ثانية.

قالت جدَّتي: "هيه، إذا كنتِ ستبكين، فدعينا من الصور". مسحتْ أمّي الدموع، وظهر ما يشبه ابتسامة على وجهها. ثمّ بدأنا ثلاثتنا نُقلِّب الصور.

-٢٦-

كان لدينا كثير من الصُّور في البيت أيضًا. لكنها كانت رَقْميَّة. كانت في حاسوب أبي، لكنه أخذه معه. صور من عطلاتنا ومناسباتنا الخاصَّة. التقطتُ كثيراً منها بنفسي. أحبُّ التقاط الصور. ربمّا عليَّ أن أصبح مصوّرًا بدلًا من كاتب. ليس لديَّ مفِّكرة، ولم أكتب شيئًا بأيّ حال. على الأقلّ، التقطتُ الصور. لكنْ؛ ليس لديَّ آلة تصوير أيضًا. أخذ أبي آلته. عندما أفكّر بالأمر، آلة التصوير أغلى ثمنًا من الدفتر . سيكون أسهل أن أصبح كاتبًا.

أتذكَّر عندما كنتُ أصغر سنًا، أحَبَّ أبي التقاط الصُّور لأمّي ولي. أو فقط لأمّي. أو لي وحدي. كانت تعانقه، تقبّله على شفتيه وعنقه، تأخذ آلة التصوير منه، وتبدأ بالتقاط الصور. له أو لي أو لكلينا معًا. حينها كان لدينا آلة قديمة، تُنتج صورًا ورقية، اشترى أبي لاحقًا آلة تصويرٍ رَقْميّة.

لا أتذكَّر أننا قلَّبنا الصُّور في السَّنوات القليلة الماضية. كان والديَّ مشغولين جدًا. وقد علا الصور "الغبار" في مجلّدات على حاسوب والدي المحمول.

-٢٧-

اتّصل بي أبي لأوّل مرّة بعد أسبوعين من مغادرته لنا. اتّصل جدّي وجدّتي من بلوفديف بأمّي في اليوم التالي أيضًا. كانت هادئة في أثناء المحادثة، لكنهم لم يتحدّثوا كثيرًا معًا يومًا، حتّى سابقًا. اعتادا الحديث مع أبي. ناولتْني السَّماعة بعد أن بقيت صامتة لفترة. تحدّثتُ مع جدَّتي أولًا، ثمّ مع جدّي. كانا كلاهما يؤكّدان لي أن أبي يحبّني، وأن هذا أمر بينه وبين أمّي، ولا يتعلّق بي. لا أوافق، لهجره كل العلاقة بي. لم أقل لهما ذلك. طلبا حينها أن أذهب لرؤيتهما. قلتُ لا أعرف. ثمّ اتّصلا بي ثانية. والآن يتّصلان إلى بورغاس أيضًا...

اتّصل أبي بي على هاتفي المحمول في أثناء الفرصة في المدرسة.

"كيف حالك، يا فتاي؟"

"بخير".

لم أقل شيئًا آخر. لم أعرف ماذا أقول.

"أنا آسف على كلِّ ما حدث. لكنْ؛ هذه هي الحياة. ستفهم عندما تكبر".

لم أرغب بأن أفهم. سمعتُ أمّي تخبر الخالة آنا أنَّ أبي كان يخرج من العمل ليرى مونيكا في أثناء تواجدي في المدرسة. وأنهما ذهبا للغداء معًا، وإلى فندق.

لم أقل شيئًا.

"لكنك ابني. وهذا لن يتغيّر. لم أتركك. أريدك أن تعرف بأني ما أزال والدك. متى يمكنني أن أراك؟"

"لا أعرف. اسأل أمّي".

"أمك لا تريد التحدّث إليّ... كيف حالها؟"

"بخير".

"سأتّصل بك ثانية".

"حسنًا".

إيڤان

تحدث هذه الأمور فجأة أحيانًا.

أتذكَّر القيادة إلى البيت. كم كنتُ متعبًا وفاترًا. هذا ما كنتُ أشعر به في السَّنوات القليلة الأخيرة، برود داخلي. كل شيء في مكانه في المشهد، لكنْ؛ لم يحدث أيّ تغيير على الإطلاق. يومًا بعد يوم. عمل، الأمسيات في البيت مع لينا، الطِّفل، الزيارة العَرَضية من عائلة صديق، المسلسلات التلفزيونية المعدَّة لقتل الوقت وما بقي من الدِّماغ... هدوء، وفتور...

وفجأة ظهرَت، كما لو كانت من عالم آخر. كنتُ مندهشًا. رأيتُ كثيرًا من النساء الجميلات.. كانت لينا حسناء أيضًا عندما التقيتُها. لا تزال تبدو جميلة، رغم ثقل السنوات والتَّعب. لكنْ؛ مع مونيكا كان الأمر مختلفًا. حضورها وسلوكها. ثمّ أصبح كل شيء مرحًا. هي شخصيًا كانت احتفالًا وسط وجودنا الدنيوي. بالكاد تحدّثنا تلك الليلة الأولى. كانت هي ولينا

تتذكّران الماضي، تتحدّثان عن السَّنوات التي ضاعت منهما، بينما كنتُ هادئًا تمامًا.

سحرتْني نغمة صوتها.. مثل نبيذ أحمر كثيف. حتّى إني توقّفتُ عن الاستماع عن حدّ معيّن، حسبي أني تركتُ نفسي تُحمَل على أمواج ذلك الصَّوت، وشعرتُ بموجة أخرى تصعد في داخلي، وتغمرني.. أردتُ أن آخذها هناك، حينها، مباشرة على الطاولة، أن أسحب مفرش الطاولة بكل ما عليه من طعام، وأسكب النبيذ الأحمر، وأن أرفع تنّورتها، وأضاجعها بوحشية، بلا مبالاة، وبشبق.

دوَّختني شدَّة رغبتي بها. أتذكَّر أنني في آخر الليل رويتُ بعض النكات، وضحكَت كثيرًا. كما لو أنها تداعبني بتلك الضحكة. أتذكَّر أيضًا أنني في وقت متأخّر من تلك الليلة حاولتُ ممارسة الجنس مع لينا، برغبة لم أشعر بها منذ وقت طويل، لكنها رفضتْني، سألت ما الذي يحدث معي، وقالت إنها متعبة. وأنا ممدّد في الظلمة بجانبها، فكَّرتُ بمونيكا فقط. تخيَّلتُ عطرها، مَلمس بشرتها البيضاء، مداعبة شعرها الأشقر، نعومة شفتيها، ثقل نهديها بين راحتيّ، التأوّهات التي عرفتُ بأني سأُثيرها فيها. شعرتُ تقريبًا بألم جسدي من الشَّهوة. وجرى الأمر هكذا، يومًا بعد يوم. فقط عندما تعرّفتُ إليها لاحقًا، أحببتُ فلسفتها الهادئة عن الحياة، وطريقة عيشها لها بسهولة. تحدَّثَت بعذوبة كبيرة ونعومة عن طلاقها، عن عملها الممِلّ في بورغاس.. حياتها الرتيبة، وعن قلّة المال، بدت كما لو أنها كانت تروي حكاية. سكَّنتْني. وأردتُها أكثر. لاحظتُ الطريقة المشوّشة التي ناظرتْني بها، وكيف تورَّدتُ أحيانًا، وقادني هذا إلى مزيد من الجنون. وبدأ قلبي يخفق بشدّة.

لينا، كيف يمكنني أن أشرح أني لم أكن أبحث، لم أبحث، لم أتمنَّ

ذلك، لم أرغب أن يحدث بتلك الطريقة. لكنه حدث. جاء إلى بيتنا غير منشود، غير مرغوب ولم يكن بمقدوري فعل شيء. هناك أشياء تتجاوز سيطرتنا، لينا.. لماذا تجاهلتِني طويلًا؟ والمرّات القليلة التي استجبتُ فيها لرغبتي كنتِ كما لو أنك تقدّمين تضحية كبيرة...

مع ذلك، حتّى ذلك الحين لم أكن قد فكَّرتُ في البحث عن امرأة أخرى. قبلتُ أن هذه هي الحياة، أمرٌ يحدث للجميع عاجلًا أم آجلًا. لكنْ؛ الآن أشعر بأني حيٌّ من جديد. هذا ما أريدك أن تفهميه، لينا! لم أقرّر ضدّك وضدّ مارتن، لكنْ؛ من أجلي. ستكونين دومًا عزيزة عليّ، ولا أريد أن أبتعد عن ابني أبدًا. عليَّ أن أبقى في حياته، ليس هناك طريقة أخرى... وهذه فرصة لك أيضًا، لينا.

أنت تستحقين المزيد. في السَّنوات الأخيرة، لم أكن أمنحك الكفاية. أعرف ذلك. لقد عشنا مثل رفيقين اعتادا سابقًا أن يكونا مقرّبين، والآن لا يربطنا ببعضنا سوى خيط الذكريات، والعادات والطفل، لكني أريد أكثر من هذا. أنت أيضًا تريدين المزيد. أنت فقط لم تُدركي ذلك بعد. لم أكن أدركه أيضًا. لكن مونيكا ساعدتْني على رؤيته. أنا واثق من أنك ستدركينه أيضًا لينا، هل ستُسامحينني؟

أنظر إلى والديَّ.. ماذا يعني بقاؤهما معًا؟ عاشا الحياة برتابة، وبرتابة هرما... هل كانا يومًا سعيدين؟ من الصَّعب عليَّ أن أتخيّل. لا أريد لمارتن أن يرانا بهذا الشكل. لا أريده أن يستسلم مثلنا، ويمضي الحياة بحبٍ متهالك. أريد لابني أن يكون سعيدًا. أريد أن أكون سعيدًا.

هذا صحيح، لقد خدعتُكِ. لكنْ؛ ليس لوقت طويل. الحقيقة هي أني لم أعرف بأني سأذهب معها. أنا حقًا لم أعرف حتّى تلك الليلة. لكنْ؛

عندما أزفت اللحظة، وطلبتِ منها أن تغادر بيتنا، أدركتُ بأنه لا يمكن أن يكون بهذه الطريقة.. فكرة أنها ستغادر، وأني سأبقى في هذه الشقّة الفارغة، الشَّاحبة والباردة فجأة، كان هذا مستحيلاً بوضوح. لا يُحتمَل. وعرفتُ أنه لا يمكن أن يكون بهذا الشكل.

أشكّ بأني سأخبرك هذه الأمور يومًا لينا. وأشكّ بأنك ستفهمينني. لكن مارتن، آمل أن يفهمني مارتن..

-٢٨-

جاء خالي البارحة مجدّدًا. قال حالما رآني:

"مارتي، لديَّ شيء لك".

اعتقدتُ أنه لوح من الشوكولا. يجلب لي خالي الشوكولا عادة. لكنْ؛ بدلًا من الشوكولا، ناولني كيسًا ورقيًا، يحمل اسم متجر "هيليكون". شعرتُ بإثارة سارّة. هل يمكن أن يكون... نعم! دفتري! كيف عرف؟ لا أحد مثل خالي! كدتُ أقفز؛ لأعانقه، لكنْ؛.. حسنًا، نحن رجال في آخر الأمر. اكتفيتُ بشكره. لكنه عرف مدى سعادتي.

قال ضاحكًا: "عندما نلتقي في المرَّة القادمة، أتوقّع أن تكون قد ملأت نصفه".

بدأتُ بالمهمة حال مغادرته. فتحتُ المفكِّرة، وحدَّقت طويلًا بالصَّفحات البيضاء ذات الهوامش الرفيعة. لم أجرؤ على البدء بالكتابة. لا ينبغي كتابة سوى ما هو حقيقي وجيِّد في دفتر مميّز مثل ذلك. أخيرًا تجرّأتُ، وكتبتُ جملة. كانت على الشكل التالي: " غادرَنا والدي بادئ الأمر ".

-٢٩-

قُبيل ذهابنا إلى بورغاس تمامًا، اتَّصل بي والدي ثانية. أصرَّ على رؤيتي من جديد. وكرّرتُ قولي إنَّ عليه التحدُّث إلى أمِّي. سأل عن حالي، فقلتُ إني بخير. لم أسأل عن مونيكا. سألني عن أمّي، قلتُ إنها في أحسن حال، ولم يخالجني شعور بالذنب؛ لأني كذبتُ.

قال أخيرًا: "مونيكا تسلِّم عليك. تأمل بأنك لستَ متضايقًا منها".

غادرتْ مونيكا دون أن تُودّعني. والدي كذلك الأمر. كلاهما غادرا فيما كنتُ نائمًا. قلتُ لنفسي إني لستُ منزعجاً منهما. لكنْ؛ عندما أفكِّر في الأمر، أشعر بغصَّة في حلقي.

مونيكا

لا أشعر بالذَّنب إلا نحوكَ، مارتن. سوف تتدبّر أمُّك أمرها، وتتجاوز الألم. هي مسؤولة أيضًا، هي ليست الضَّحية البريئة والزوجة المخدوعة وصديقة... بأيّ حال، أنت لا تستطيع تفهُّم ذلك الآن، وهذا ليس ضروريًا. لكنْ؛ أنت.. كيف يمكنني أن أشرح لك؟! كيف يمكنني أن أُصلح الأمر؟!

انظر، لطالما كنتُ صادقة معك. ولن أبدأ بالكذب عليك الآن. تحدث هذه الأمور في الحياة، وكلّما تفهَّمتَ هذا، وقبلتَهُ باكرًا، كان أفضل. أنا آسفة؛ لأنه كان عليَّ أن أكون مَن يعلّمك ذلك الدَّرس، لكن الأشياء ليست تحت سيطرتنا دومًا. أظن أنها ليست كذلك غالبًا. يمكن أن يجد الناس

أنفسهم.. منجذبين إلى.. يمكنهم أن يُعجبوا بشخص آخر، حتّى لو كان يوجد شخص بجانبهم. من الصَّعب جدًا أن تمضي حياتك كلها مع شخص واحد فقط، هل تفهم؟ لأننا باستمرار نلتقي آخرين، وقد.. نُعجب بهم أيضًا. وقد نُعجب بواحد منهم كثيرًا حتّى إننا نرغب برؤيته أكثر من سواه، أكثر من ذلك الذي يعيش معنا.

لأننا نتغيّر مع الوقت، وتتغيّر علاقتنا مع الآخر أيضًا. كذلك، ربمّا تقودنا مجموعة من الرغبات والقرارات في البداية، لكنْ؛ يمكن أن تكون مختلفة تمامًا فيما بعد في الحياة. كما كان حالي عندما كنتُ متزوّجة. أحببتُ زوجي، وقضينا بعض السَّنوات الجيدة. لكنْ؛ بعدها جاء زمن لم أستطع الاستمرار معه مزيدًا من الوقت. وتركتُه. والآن التقيتُ والدك. ومع ذلك لم أرغب، وليشهد عليّ الله، لم أرغب بأن يحدث بهذه الطريقة، شعرنا بشيء مختلف ومميّز، أمر جعلنا راغبين أن نكون معًا. جعلنا غير قادرين على ألا نكون معًا. هذا لا يعني على الإطلاق أن والدك لا يحبُّ والدتك، أو أني لا أحبُّها، ولا يعني بأني لا أحبّكَ أنت على وجه الخصوص. بل على العكس، أحبّكما كثيرًا جدًا. لكنّ ما يحدث بيني وبين والدك لا علاقة له بكما. إنه بيننا فقط. الأمر المحزن الوحيد هو أن حبّنا تسبّب لك ولوالدتك بالكثير من التعاسة.

أنت حبيب والدك. هو فخور جدًا بك. وأنا أشعر كما لو أنك ابني، ولا أريد مزيدًا من الأطفال حقًا. أنت تكفيني. لهذا أنا حزينة جدًا الآن. أخشى أن أخسرك.. وأنك لن تسامحني أبدًا. لكنك فتى ذكي، وإذا لم يكن الآن، سوف تفهم مع الوقت.

كنتَ تحكي لي عن أليكس، وعن مدى حبِّك لها. لكنْ؛ تخيَّل إذا التقيتَ فتاة أخرى، أُعجبت بها أيضًا، أكثر من أليكس. هل هذا يجعل

منك شخصًا سيئًا؟ أمر مثل ذلك يحدث للشخص في أي عمر. ولا علاقة له بكونهما متزوّجين، أو لديهما طفل أو... المشاعر لا تتغيّر. فقط الظروف وطريقتك في التفكير تتغيّر. سوف تفهم مع الوقت...

ربمّا ستسمع عني أشياء سيّئة من أمِّك... ومن الآخرين. بعض منها قد يكون صحيحًا، أنا لستُ قدِّيسة. لكنْ؛ مارتن، لا أحد كامل، ولا أنا أيضًا. أنا بالفعل لستُ كاملة على الإطلاق. لكني أريدك أن تعرف، أنني بكل ما لديّ من عيوب، كنتُ دومًا صادقة معك. في كل شيء. لأن معك، لا يمكن أن يكون الأمر خلافًا لذلك. لأنك صديقي.

وربمّا بعد أن تهدآ أنت ووالدتك، يمكننا أن نرى بعضنا ثانية؟ يمكنك أن تأتي لزيارتي وزيارة والدك؟ أنا أنتظر تلك اللحظة، مارتن، فتاي الكبير الغالي.

-٣٠-

بدأت سلسلة من الأيام الحارَّة. بعد بركة المياه المالحة، تلفحنا الشَّمس، وتجعل طريق عودتنا صعبًا. نجرّ أنفسنا بالكاد. حتّى جدَّتي، النشيطة جدًا عادةً، تتوقّف أحيانًا؛ لتلتقط أنفاسها، وتشرب الماء من العبوة البلاستيكية التي تحملها دومًا. تقول إنَّ علينا أن نشرب لترين يوميًا على الأقلّ. تحاول أن تجعلني أفعل أيضًا. حسنًا، لا مجال لأن تجعلني أفعل ذلك! أنا لستُ ضفدعاً!

قالت جدّتي أيضًا إنَّ هذه أعلى درجات حرارة المسجّلة في السَّنوات الـ ١٥٠ الأخيرة. ثمّ بدأت تقلق من الأمور التي كنا سنعاني منها بسبب هذا الاحترار العالمي. كانت هذه كلمتها. الاحترار العالمي. أحبُّ الطقس الدافئ. سيكون لطيفًا لو أن الوقت كله صيف. لا أعرف ما الذي يُقلق جدَّتي. سيكون بمقدورها الذهاب إلى بركة الماء المالح طوال السَّنة. تبدأ بالضحك عندما أقول لها هذا.

"أوه، مارتي. لن يكون مجرَّد صيف. سيكون هناك الكثير من الجوائح حول العالم".

"ما هي الجائحة؟"

"كوارث طبيعية. مثل الفيضان".

"وأيّ نوع من الانتقاض قد يحدث؟"

"طوفان. سوف يذوب الجليد في القطب الجنوبي، ويرتفع مستوى البحار والمحيطات. مُدُن بأكملها، وربّما بلدان أيضًا، ستجد نفسها تحت الماء. مثل مدينة البندقية".

تخيّلتُ أناسًا يزورون البندقية بواسطة غوّاصة. يتنقلون على طول الأزقّة وفوق الجسور الصغيرة. ثمّ يتوقّفون في مكان ما يقدّم للمسافرين البيتزا والسباغيتّي. غداء أو عشاء في البندقية. رأيتُ صورًا لها. لقد أحببتُها حقًا. بدت مثل حكاية من حكايات الجنّ، وجعلتْني أرغب حقًا بالذهاب إليها ذات يوم. ذهب والداي مرّة، لكنهما تركاني عند جدّتي وجدّي في بلوفديف. إنها صورهما التي رأيتُها. لكنها على حاسوب والدي المحمول. الجهاز نفسه الذي أخذه.

-٣١-

جاءت اليوم فتاة إلى بركة المياه المالحة. ليس أنه لم يكن هناك فتيات من قبل، بل كنّ هناك. لكنْ؛ هذه كانت مختلفة، شعرها بني اللون مسرّح كذيل الحصان، وكانت ترتدي نظارات شمسية ولباس بحر برتقالي اللون عليه شموس صغيرة بنيّة. بدا بهيجًا. وهي بدت جدّيّة جدًا، بخلاف لباسها البحري، وركّزتْ عندما نزلت إلى البحيرة مع أمّها. أمسكتْ بيدها. سارتا قليلًا تخطوان على البلورات الحادّة بحذر، واستقرّتا على مسافة قريبة منّا، بدأتُ أراقبها. ظننتُ أنها لاحظت ذلك؛ لأن نظارتها كانت موجّهة صوبي. لكنْ؛ بعدئذٍ لفتتْ رأسها، وبدأت تنظر إلى مكان ما جانبيًا، ظلّت النظّارة تلتفتُ نحوي من حين لآخر.

قالت جدّتي إنَّ علينا الخروج. التفتُّ لأنظر إليها مرّة أخيرة قبل أن نغادر. كانت مسترخية في البركة ساكنة الملامح. مررنا في طريقنا بدندي الذي لم يأتِ منذ مدّة.

داعبني: "هيه، بالكاد تعرَّفتُ إليك! لقد أصبحتَ رجلًا حقيقيًا في هذه البركة!" لكنه عندما قال ذلك، كان ينظر إلى أمّي. "ولا أزال غير مصدِّق بأن هذه هي أمّكَ! يستحيل أن يكون لمثل هذه المرأة الشابّة ابن في مثل سنّكَ!"

لم تقل أمّي شيئًا، لكنها ابتسمت قليلًا. لماذا لا ينظر هذا الدندي إلى تماسيحه بدلًا من مغازلة أمّي؟

رأيتُ الفتاة مرّة ثانية، ونحن نخرج، مغطّاة بالطين. كانت هي وأمّها قادمتين تجاهنا. أُحرجتُ، لم أرغب أن تراني مكسوًا بالطين، لذا؛ تقدّمتُهما مسرعًا، وانتظرت أمّي وجدّتي على الشّاطئ.

-٣٢-

بدأت أمّي تسبح في البحر معنا صباحاً. حدث الأمر على الشَّكل التالي. البارحة صباحًا لم تكن الشَّمس ساطعة كثيرًا. كان البحر والسَّماء والشَّاطئ كالفضّة. نزلنا إلى الماء، وكان دافئًا غير مائج، وتمامًا عندما كنَّا على وشك البدء بالسباحة، رفعت جدّتي بصرها، وقالت: "مارتي، مارتي، انظر! طائر التمّ!" رفعتُ بصري أيضًا، ورأيتُه يلوِّح بجناحيه الأبيضين في السَّماء الفضّيّة. بسط عنقه الطويل، وكان يطير بهدوء بعيدًا عنا. التفتُّ إلى أمّي، ورأيتُ أنها كانت تنظر في الاتجاه نفسه. بدا لي أن وجهها كان مختلفًا. مشرقاً بالضوء. حينئذٍ نهضَتْ، وتقدَّمتْ نحونا.

نزلَتْ إلى الماء، وعندما وصل حتّى خصرها، أرختْ نفسها، وبدأت تسبح. وذهبتْ أبعد؛ حيث كان الماء عميقًا عليّ، لكنها فيما بعد التفتتْ، وجدَّفتْ نحونا. عندما جاءت، كانت ترتسم على وجهها ابتسامة متردّدة. كما لو أنها تشعر بالإحراج؛ لأنها تبتسم. ثمَّ حدث لي شيء ما، شعرتُ بالسَّعادة والمرح، ورميتُ عليها الماء. بدأت تضحك، ورمت عليّ الماء. ثمّ بقينا نلعب ونضحك، نتصارع ونطارد بعضنا في الماء، ثمّ عندما تعبنا، عانقتْني، وقبَّلتْني على عنقي. كانت جدّتي تنظر إلينا، وتبتسم أيضًا.

اليوم نزلت أمّي معنا منذ البداية. سبحتْ على طول الشَّط، حتّى المطعم الأبيض، وعادتْ. سبحتُ وجدّتي أقلّ؛ لأننا كنا متعبين.

-٣٣-

كنا نخرج للنزهة كلَّ ليلة. نسلك طريقين في معظم الأحيان. إمّا أن نبدأ من شارع أليكسندروفسكا، ونمشي حتّى السَّاعة؛ لننعطف عند جادَّة بوغوريدي، حتّى حديقة البحر، ونواصل على طول الممشى البحري إلى مجمَّع فلورا، ونعود إلى البيت، أو نبدأ من حديقة البحر، ونسلك الطريق نفسه في الاتجاه المعاكس. لكنْ؛ أحيانًا نمشي فقط نحو دار البلدية، أو فقط إلى حديقة البحر.

نجلس على مقعد؛ لنستريح أو ننظر إلى البحر. لا نرتاد المطاعم؛ لأنها باهظة. لم يسبق أن مشيتُ طويلًا. مع أمّي وأبي كنا غالبًا نذهب إلى المطاعم.

منذ بضعة أيام، تماماً عندما قطعنا نصف الطريق الأول، توقَّفت امرأة أنيقة جدًا أمام أمّي.

سألتْ: "لينا، هل هذه أنت؟"

بدا كما لو أنَّ أمّي لم تتعرَّف عليها أيضًا.

قالت: "نعم"، وبدا صوتها غير واثق.

"يا إلهي، يا للمفاجأة! أنا روميانا. ألا تتذكّرينني؟ درسنا معًا حتّى الصَّفّ الثامن".

أمعنت أمّي النَّظر في وجهها.

"رومي، هل هذه أنت؟ لم أكن لأتعرّف عليك أبدًا. لقد تغيّرت كثيرًا... تبدين رائعة".

"هيًّا! أنت تبدين رائعة أيضًا!"

أمعنتُ النظر في أمّي، وكان صحيحًا، بدت أفضل كثيرًا ممّا كانت لدى مجيئنا. منحتْها الشَّمس سُمرة، وبدت لائقة بها على نحو رائع. كانت بشرتها نضرة وناعمة من الطِّين. وكانت قد بدأت بتناول الطعام، فلم يعد لها ذلك المظهر المغضَّن الآن. لكن شعرها كان لا يزال مشعثًا ومتعبًا. لم تذهب إلى مصفِّف الشعر منذ فترة طويلة. بالفعل منذ وصول مونيكا.

قدّمتني أمّي: "هذا ابني مارتن، وتتذكّرين أمّي؟"

" أوه، يا له من فتى ظريف! فيه شبه منك! وبالتأكيد أتذكّر والدتك. لم تتغيّري أبدًا خالة زدرافكا. من حسن الحظّ أني رأيتكِ؛ لكي أرى لينا أيضًا".

"كم عمرك؟"

أجبتُ: "أنا في العاشرة".

"لديَّ ابن أيضًا، هو في الثالثة عشرة من عمره".

"ما اسمه؟"

قالت رومي: "أليكسندر. لا بد أن نلتقي، ونعرّف الطفلين أحدهما على الآخر. ونتذكّر الأيام الخوالي".

تبادلتا الأرقام، واتفقتا أن تبقيا على اتّصال.

-٣٤-

جاءت الفتاة مع أمّها ثانية. كلّما ذهبنا وجدناهما هناك. لكنْ؛ يبدو أننا لم نتواجد في المكان نفسه لوقت طويل. بدت هادئة تمامًا وجدّيَّة. تبادلت الكلام مع والدتها من حين لآخر، لكنهما لم تقولا الكثير. هي ترتدي نظّارتها الشمسية دومًا. حتّى الآن لم أرَ عينيها.

أفكّر بأليكس أيضًا. أرسلتُ إليها رسالة نصّيّة؛ لأسأل عن حالها. قالت إنها ذاهبة إلى الجبال مع والديها، وإن صوفيا مملّة.

ظلَّ دندي يحوم حول والدتي. الآن صار يُحييها أيضًا. ويجاملها دومًا. لا تجيب بحماسة كبيرة، لكنَّ الحال يُعجبها. تخفض عينيها، وتبتسم. كانت حتّى البارحة تبكي على والدي، والآن تغرم بمداعبات دندي. لا أفهم النساء.

الليلة الماضية خرجنا مع زميلة أمّي السَّابقة وابنها أليكسندر. اتَّصلَت بها للقيام بالترتيبات. بعد مونيكا، صار ينتابني الشَّكّ من زميلات أمّي السَّابقات. لكن هذه الخالة لم تكن ترتدي تنانير قصيرة، أو تنتعل أحذية بكعوب عالية. ومع ذلك، هي جميلة ومرحة. بطريقة أخرى مختلفة عن مونيكا. المهمّ في الأمر هو أن أمّي تنشَّطت قليلًا. أولًا شعرت بالقلق؛ لأننا لا نملك النقود، وإلى أين نذهب، لكن جدّتي وبَّختْها، وقالت إن الخروج مرّة واحدة سوف لن يتسبّب بنهاية العالم، ولن يجعلنا نتضوَّر جوعًا. توقَّفت عن القلق، ووضعت القليل من الزينة، وهذا ما لم تفعله منذ حين.

التقينا أمام متجر "هيليكون". ابنها أطول قامة مني، ويكبرني بثلاث سنوات. كان في البداية هادئًا، وبدا ضجرًا، لكني رحتُ أسأله عن أمور، وبدأنا نتحدّث. مشينا قُدُمًا. قال إنَّ مقرّراته المدرسية صعبة جدًا. لكنْ؛ سوى ذلك كان الأمر مسلّيًا، ولديه زملاء ظرفاء. قلتُ له إنَّ زملائي ظرفاء حقًا أيضًا. وكدتُ أخبره عن أليكس. لكني التزمتُ الصَّمت. قال إنَّه يريد أن يصبح مُصمِّم برامج، ويذهب إلى لندن. ذهب الصَّيف الماضي هو ووالدته لزيارة بعض الأصدقاء هناك، وقد أحبّها حقًا. أقربائي كانوا في إنكلترا أيضًا، عادوا منذ بعض سنوات، وجلبوا لي هدايا رائعة. هو لم يذكر والده، ولا أنا. أخبرتُه عن رغبتي في أن أصبح كاتبًا، وعن أني بدأتُ العمل على ذلك. لم تستهوه الفكرة كثيرًا.

قال: "لا يمكنك أن تعيش من الكتابة، سوف تتضوّر جوعًا". هذا جعلني أفكّر. مشينا لفترة صامتين. أخيرًا شجّعني قائلًا: "لكنها هواية ممتازة".

جلسنا في مطعم صغير على البحر. طلبت والدة أليكسندر البيرة وأمّي المياه المعدنية.

سألت الخالة رومي: "ألن تشربي معي البيرة؟"

أجابت أمّي: "لا يمكنني لأسباب طبّيّة".

شربتُ وأليكسندر مشروبًا غازيًا. اقترح أن نأخذ مشاريبنا، ونجلس على الرَّمل؛ لأنه أكثر برودة. لم أرغب حقًا بالجلوس على الرَّمل، لكني وافقتُ؛ كي لا يظنّ بأني مخنَّث. جلسنا نشرب، وأخبرني المزيد عن لندن. وكم هي مدينة كبيرة. تبدو صوفيا قرية بالمقارنة بها، وهناك عازفون في الشَّارع وأناس من جميع أنحاء العالم. وهذا جعلني راغبًا في الذَّهاب. لم يسبق لي أن سافرتُ إلى الخارج، وأظن أن عليَّ الذَّهاب حقًا إلى مكان ما قريبًا. قال

إنَّ هناك تذاكر طيران رخيصة جدًا، ويمكنك أن تطير إلى روما أو برشلونة بسعر تذكرة الحافلة من صوفيا إلى السَّاحل. يجب أن أقول هذا لأمّي.

أخبرني خالي أنه كي أكون كاتبًا من الهامّ أن أرى أماكن جديدة، وأعيش تجارب لأصفها. ووعدني أن يصحبني في رحلة قريبًا.

تبادلتُ مع أليكسندر الأرقام (هاتفه الثَّقال حديث وباهظ الثمن، بينما هاتفي رخيص، وشعرتُ ببعض الإحراج)، واتّفقنا أن نخرج ثانية. اتّفقتْ أمّي وأمّه على هذا أيضًا.

-٣٥-

التقيتُ اليوم سيلڤيا أخيرًا، وهو اسم الفتاة من بركة المياه المالحة. ذهبنا هذه المرّة إلى الطِّين في الوقت نفسه تقريبًا. رفعتْ نظّارتها على شعرها مثل تاج. كانت عيناها غريبتين. لم تتحرّكا. حدَّقتُ فيهما، لكني لم أرَ جوابًا. ابتسمتُ لها، لم تستجب أيضًا. ثمّ أدركتُ أنها كفيفة البصر. لهذا كانت تضع النظّارات دومًا. حزنتُ. لم تبدُو حزينة مع ذلك، ركَّزتْ فقط على الانحناء وغَرف الطين، ثمّ بَسْطه على جسدها ووجهها. كانت أمّها بجانبها تقوم بالأمر نفسه. تمامًا مثلي وجدّتي وأمّي. عندما انحنت سيلڤيا في المرّة التالية، وقعت نظّارتها في الطين. بدأت تتحسّس القاع من حولها.

قالت: "أمّي، وقعت نظّارتي".

وذهبتُ إليها مباشرة مثل سوبرمان، غطستُ في الماء وبدأتُ أمحِّص في الطين. وجدتُها سريعًا جدًا، وأخرجتُها. كانت مَكسوَّة بالطين. وأنا كنتُ كذلك أيضًا.

قلتُ: "هيه، وجدتُ نظّارتك الشمسية"، ولمستُ أصابع يدها اليمنى. التقطتْها بسرعة، وابتسمتْ.

"شكرًا جزيلًا لكَ! ما اسمكَ؟"

"مارتن. واسمكِ؟"

"سيلڤيا. هل يمكن أن أمسَّ وجهكَ؛ كي أراك؟"

وقبل أن أتمكَّن من الإجابة، بدأت تتحسّس وجهي بأصابعها الموحلة.

قالت أمّها: "سيلڤيا، ماذا تفعلين؟"

أجابت الفتاة: "أنظر فقط".

مسَّت أصابعها أنفي وخدّي وشفتيّ وجبهتي، ثمّ سحبتْ يدها.

قالت: "أعجبتَني".

أجبتُ: " أنت جميلة جدًا أيضًا".

لحسن الحظّ، كانت أمّها جانبًا، ولم تسمع. ولا أمّي كذلك.

قالت أمّها: "سيلڤيا، لنخرج".

"اخرجي أنت. سآتي بعد قليل. مارتي سيساعدني".

تردّدتْ والدتها، لكنْ؛ فيما بعد خرجتْ، وانتظرتْ.

أمسكتْ سيلڤيا بذراعي، وأرشدتُها. كانت المرّة الأولى التي أفعل فيها ذلك، وشعرتُ ببعض الغرابة.

عندما خرجنا، أفلتتْ يدي.

قلتُ: "حسنًا، أظنّ أننا سنغادر".

"هل ستكون هنا غدًا أيضًا؟"

"نعم، نحن هنا كل صباح".

قالت سيلڤيا: "أراك غدًا، إذًا".

بدأنا نمشي، والتفتُّ لأنظر إليها، وأردتُ أن ألوِّح، لكني تذكَّرتُ أنها لن تتمكّن من رؤيتي، فلم ألوِّح، لكنْ؛ نظرتُ إليها مزيدًا من الوقت..

-٣٦-

بينما كنّا سائرين إلى البركة هذا الصّباح، روت لي جدّتي كيف سرق الغجر أمّي في صغرها عندما كان عمرها ثلاث سنوات. كانت تلعب أمام المبنى عندما مرّت عربة، يجرّها حصان، وأخذتْها. عندما لم تتمكّن جدّتي من إيجادها، اتّصلت بالشُّرطة مباشرة، ولحقوا بالعربة في ضواحي بورغاس.

قالت جدّتي: "كانت أمّك فتاة جميلة"، وبدا صوتها رقيقًا وفخورًا." لم يكن هناك أجمل منها. عندما اختفت، فقدتُ عقلي من شدّة القلق. هذا هو الحال، لا يكتفي الجمال بجذب الأشياء الجيدة".

فكّرتُ أنه لو لم تُمسك الشرطة بالعربة، لكنتُ الآن غجريًا، أعيش في مخيّمهم. ولم أكن لأعرف جدّتي. وشعرتُ بالسعادة لأن الشرطة كانت سريعة بما فيه الكفاية.

حكت أمّي للجدّة عن والدة أليكسندر. كانت مُطلَّقة، تركها زوجها؛ ليعمل في إسبانيا، ولم يعد. طلّقها عبر البريد. ثمّ أسَّس عائلة جديدة مع مهاجرة بلغارية أخرى. يُرسل المال لأليكسندر بين الحين والآخر، لكنه لا يتّصل أبدًا.

قالت جدّتي بمرح: "أترين؟ لم تنتهِ حياتها. إنها تعتني بابنها، وتمضي قُدُمًا".

رأيتُ كيف أطبقتْ أمّي أسنانها، وصلّبتْ عنقها. لكنها لم تقل شيئًا. حسبها أن أطلقت تنهيدة طويلة.

اتّصل والدي بي ثانية. أراد أن يعرف موعد عودتنا إلى صوفيا. أعرب مجدّدًا عن رغبته في رؤيتي. قال لي أيضًا إنه يحبّني ويفكّر بي. هو لم يقل لي أمور مثل تلك من قبل، لذا؛ حرتُ جوابًا.

-٣٧-

اتَّصل بي خالي؛ لنتباحث في أمر رحلتنا. تحدَّث مع أمّي أولًا للحصول على موافقتها، ثمَّ معي. قال لي إنَّ عليَّ الاستيقاظ باكرًا.

أجبتُ: "أنا أستيقظ باكرًا كلّ يوم".

"حسنًا، إذًا؛ لن أفاجئك. كن جاهزًا عند الخامسة".

استوعبتُ، لكني لم أقل سوى: "حسنًا".

سألتُ: "إلى أين سنذهب؟"

أجاب خالي: "سترى. إنها مفاجأة".

اتفقّنا أن نذهب في اليوم التالي. أتذكَّر قولي لسيلڤيا إني سأكون عند بركة المياه المالحة. هل ستتضايق مني؟

كان الاستيقاظ باكرًا صعبًا، لكن العناء كان مستحقًا. استطاع خالي حقًا أن يفاجئني، وأمضيتُ وقتًا مدهشًا. قال لي حالما التقينا:

"أريدك أن تكون شديد الانتباه، وأن تكتب قصّة قصيرة عن رحلتنا عندما نعود إلى البيت".

هذا ما فعلتُه. وهذا ما كتبتُه:

عند البحيرة

ربَّتتْ أمّي على كتفي قائلة: "هيَّا، حان الوقت، خالك ينتظر".

فتحتُ عينيَّ بصعوبة، وخرجتُ من السَّرير بصعوبة أكبر. أضاءت أمّي المصباح. كان النعاس يُغالبني. اغتسلتُ، وارتديتُ سروالي القصير وقميصي قصير الكُمّين، اللذين حضَّرتُهما في الليلة السَّابقة. قبَّلتُ أمّي على خدِّها، وخرجتُ. كانت الظلمة حالكة في الخارج. رأيتُ سيَّارة خالي أمام المبنى، وجلستُ في مقعد المسافر بجانبه.

ابتسم قائلاً: "صباح الخير، يا فتاي! هل أنت مستعدّ؟"

"بالتأكيد!" ابتسمتُ أيضًا. لم أقل له كم كنتُ أشعر بالنُّعاس. لم أرغب أن أجعل من نفسي أضحوكة. نحن رجال في نهاية الأمر!

قُدنا حوالي خمس عشرة دقيقة. كانت الشَّوارع مقفرة من الناس، وبالكاد كان هناك سيارات. كانت المدينة لا تزال نائمة. مررنا بمبانٍ مظلمة، ثمّ اختفت، وغادرنا المدينة. سرعان ما وصلنا إلى لافتة، كُتب عليها " غورنو ايزيروفو"(*)، وبعد بضعة منازل صامتة، وصلنا إلى البحيرة. كان ينتظرنا هناك رجل أكبر من خالي سنًا بكثير. حواجبه مجعّدة، وله تغضّن عميق بين عينيه، وأنف لحيم.

قدَّم نفسه: "صباح الخير، اسمي يازن"، وصافح خالي قبل أن يصافحني. ركبنا في مركب صغير، ودخلنا البحيرة. جلستُ وخالي جنبًا إلى جنب على مقعد صغير، بينما جدَّف يازن خلفنا. النسيم البارد الذي كان يهبُّ من المياه جعلني أرتعش.

سأل خالي: "هل تشعر بالبرد؟"

---

*) منطقة البحيرة العليا.

"قليلًا".

"ستشرق الشمس قريبًا، وسوف تشعر بالدفء".

أشار الخال يازن: "انظرا إلى هذه الشِّباك، إنهم لا يكتفون بصيد السَّمك، إنهم يسلبون. هناك طيور عادة في مثل هذه السَّاعة. لكنْ؛ ليس اليوم. هنا يحكم الأخ روما. يسرق الصيد. من المفترض أن تكون مَحميَّة طبيعية، لكن الحكومة في عطلة. لا أحد يهتمّ. والأخ روما اشترى مركبًا، يصيد السمك، ويبيع ما يصيده بأربعين ستوتينكي للكيلوغرام الواحد، وهو فخور بأن له عمله الخاص".

"خالي، ماذا يعني سارق الصيد؟"

"شخص لا يراعي الطبيعة، ويقوم بأمور محظورة، مثل صَّيد السمك والقنص".

"وشقيق الخال يازن هو هكذا؟"

انفجر خالي والخال يازن ضاحكين.

قال الخال يازن بابتسامة ملتوية، وهزَّ رأسه بحزن: "عائلة روما(*) ليسوا إخوتي بأيِّ حال. أنا فقط أدعوهم بهذا الاسم عندما أكون غاضبًا".

تخيَّلتُ الهيئة المخيفة للأخ روما سارق الصَّيد. شخص خطر ينسلُّ حول البحيرة ليلًا، ويقوم بأمور محظورة. وفجرًا يختفي مثل شبح. ارتعشتُ قليلًا، ونظرت من حولي. لم أتمكّن من رؤية شيء سوى القصب والسَّطح الصقيل للبحيرة.

---

*) اسم مجموعة عِرقية معروفة بالغجر، ينتشرون في أوروبا والأميركتين، من أصول آسيوية، يتحدّثون بلغة، تُسمّى الرومنية.

تقدَّم المركب بثبات إلى الأمام. توقَّف الخال يازن عن التجديف، وأشار:

"هناك، بلشون أبيض. وهناك، طائرا غاق كبير وصغير".

كان طائر البلشون واقفاً على ساقٍ واحدة بجانب القصب. كان أبيضاً حقًا في ضوء الفجر. شعرتُ برغبة في ملاطفة عنقه الأبيض، ومعانقته وحمايته من الأخ روما. على مسافة قريبة كان هناك طائر آخر. كان طائرا الغاق من خلفه، طائران أسودان طويلا العنق. وقفا في الماء دون حراك. فردّ أكبرهما جناحيه، وبقي متجمّدًا على هذه الحال.

"خالي، خالي، انظر! ماذا يفعل؟"

شرح خالي: "إنه يُجفِّف جناحيه".

في البعيد، طلعت الشَّمس من البحيرة. لم يسبق لي أن رأيتُها شديدة الحمرة هكذا. تدريجّيا، نصف الدائرة أصبح قرصًا، وارتفع في السَّماء. وكلّما ارتفع أكثر تحوَّل الأحمر إلى ذهبي.

قال الخال يازن: "هناك طائر عالق في الشبكة!" وغيَّر المسار.

اقتربنا من الطَّائر. كان يلهث عاجزًا، ويكافح للخروج من الشَّبكة. كان منقاره طويلاً ورفيعاً. رأيت الرُّعب في عينيه المدوّرتين القاتمتين. رفعه الخال يازن، وبدأ بعناية يفكُّ الشَّبكة عن ساقيه وجسده. وعندما حرّره تمامًا وجَّه الطَّائر منقاره نحو الماء، وغطس سريعًا.

سألتُ قلقًا: "ألن يغرق؟"

قال الخال يازن: "لا، إنه طائر مائي".

على مسافة أبعد، رأينا طائرًا عالقًا آخر. كان جسده يعوم بلا حياة.

اقتربنا منه، ورفعه الخال يازن. رأسه خفيض، لا حول ولا قوة. كان ميتًا. أخرج الخال يازن هاتفه، والتقط له صورة.

شرح قائلاً: "هذا هدف للقنص. تضعه جمعية الصيادين هنا. سأريه لهم كي يروا كيف تقتل أهدافهم".

أردتُ أن أسأل عن كثير من الأمور، لكن الخال يازن هتف: "هيه! واحد آخر!" وبدأ يجدِّف.

كان طائر بطٍّ صغير بنّيّ وفضّيّ اللون عيناه خضراوان. ممدّدٌ بلا حراك، وعيناه منتفختين بغرابة. أمسك الخال يازن به، وقال: "إنه حيّ"، وبدأ يحرّره من الشبكة ثانية. "لو تعرفان فقط كيف يخفق قلبه!"

بدا طائر البطّ دائخًا. حرَّك جناحيه قليلاً فقط عندما أزال الخال يازن الشَّبكة.

"سآخذه معنا في المركب حتّى يعود إلى وعيه، ثمّ نُطلقه بعيدًا عن الشَّبكة. هذا هدف للقنص أيضًا. هذه طيور صغيرة، لهذا تقع في الشِّباك. الكبيرة تفوقها خبرةً".

وضع البطّ على الأرض. مددتُ يدي؛ لألاطفه، لكنه فزع، وتمايل بأسرع ما استطاع نحو مقدّمة المركب. عندما ابتعد بما فيه الكفاية، توقَّف وتجمّد.

نظرتُ إليها لفترة، ثمّ سألتُ: "ما هو هدف القنص؟"

شرح الخال يازن: " يجلبها الصيادون إلى هنا، ويتركونها في البحيرة. ثمّ يأتون، ويطلقون عليها النار".

"إذنْ؛ سوف يقتل؟"

"على الأرجح".

"لماذا نُنقذه إذنْ، إذا كان سيموت في كل الأحوال؟"

قال الخال: "في الشَّبكة سوف يموت بالتأكيد، لكنْ؛ ربمّا ينجو من الصيادين"، لكن صوته لم يبدُ شديد الإقناع.

"لماذا يطلقون عليهم النار؟"

"للهو. إنها هواية. تمامًا مثلما يلعب البعض كرة القدم، يذهب الآخرون إلى الصيد".

قرّرتُ عدم طرح المزيد من الأسئلة. لن أفهم أبدًا كيف يمكن لبعض الناس أن يستمتعوا بقتل الطُّيور. يجب أن يُعاقَبوا بصرامة. كأن يُعلِّقوا عليهم إشارات، كُتب عليها عبارة "هدف قنص"، ثمّ يضعونهم في مكان مثل هذا؛ حيث تُطلق النار عليهم، كما يفعلون مع الطيور، لكي يفهموا كيف تشعر الطيور المسكينة. ثمّ لن يجرؤ أحد على فعل ذلك.

أشار الخال يازن إلى الجانب: "آه، ها هم هناك، البجعات"، وناول الخال منظارًا مزدوجًا.

قال: "نعم، هناك الكثير منها. إنها رائعة! انظر!" وناولني المنظار.

نظرتُ عبر المنظار، ورأيتُ أشكالًا مستديرة بيضاء مصطفَّة بجانب بعضها البعض. بدتْ لي مثل مراكب شراعية. ثمّ بدأ واحد منها يتحرّك، وتحوّل إلى طائر، مفرود الجناحين يتدلّى منقار كبير من الوسط مثل جراب. يُحلِّق نحو السَّماء. نظرتُ إليه من خلال المنظار. إنه جميل جدًا! رأيتُ طيور البجع في حديقة الحيوان فقط. لكنْ؛ في الطبيعة هي مختلفة كثيرًا.

قال الخال يازن: "الآن سوف نقترب منها. غيَّرت الريح اتّجاهها، ولن تقلق الطيور. تعرف أن في وسعها الإقلاع بسهولة في حال وجود خطر".

نحن الآن قريبون من البجعات. هناك كثير منها. مائة طائر على الأقلّ. هي في المياه. يمكنني رؤيتها حتّى دون المنظار. مناقيرها المتدلّية صفراء اللون. أجسادها كلها صفراء اللون نوعًا ما. جلسنا في صمت نراقبها. لا أرغب بالمغادرة. أريد أن أبقى هنا مع البجعات؛ لأنظر إليها إلى الأبد. لكن الخال يازن أدار المركب.

سألتُ: "متى سنطلق سراح البطّ؟"

"قريبًا. سنجد المزيد من البطّ، فلا يكون وحيدًا".

ابتعدنا عن البجعات، لكني ما أزال أنظر إليها. ثمّ حدثت معجزة. ارتفعت جميعها، وحلّقت نحو السَّماء. طارت باتجاهنا، وسرعان ما أصبحت فوق رؤوسنا، ثمّ واصلت قُدُمًا، واختفت في مكان شروق الشَّمس من قبل. بدت أكثر جمالاً وهي تطير. من الغريب أنه ليس هناك حكاية خرافية عن البجع. هناك بعض القصص عن طيور التَّم، لكنْ؛ بالنسبة لي البجع ليس أقلّ تميّزًا، بل على العكس. لأني رأيتُ طيور التَّم في أحايين كثيرة. حتّى الآن مررنا بواحد يسبح بهدوء. منذ بضعة أيام، عندما كنَّا على الشَّاطئ باكرًا في الصباح صرختْ جدّتي: "طائر تمّ! طائر تمّ!"

رأيناه يطير بمفرده. كانت أمّي مأخوذة بها تمامًا. لماذا ليست الآن هنا لترى البجعات؟ هل لاحظت التَّم فيما بعد؟

قال خالي، وهو ينظر إلى التَّم: "حتّى الطيور لها جمالها الفريد. لا جدوى من المقارنة بينها".

خالي هذا! هل يمكنه قراءة أفكاري؟!

مدَّ الخال يازن يده نحو الماء، وأخرج شيئًا. أرانا إيّاه. ريشة كبيرة.

قال: "ريشة بجع".

نظرت إليها بتوق. إنها جميلة جدًا. ناولني الخال يازن إيّاها، كما لو أنه يفهم الاستعطاف في عينيّ.

"إنها لك".

أخذتُ الريشة، ومرّرتُ إصبعي على حافتها. أريد أن أكتب حكاية خالية عن البجع. ستكون الحكاية جيدة؛ بحيث تحلّ محلّ خرافات طيور التّم . أريد أن أكتبها بالريشة، أن ترويها الريشة لي.

رأينا على الجانب المقابل للبحيرة، ليس من حيث دخلناها، بل من الجهة الأخرى، هيئتين تدفعان مركبًا، وتصعدان إليه.

هتف الخال يازن: "ها هم هناك! الأخوة روما!" وشعرتُ بقشعريرة باردة في ظهري. هل سيقتلوننا؟

أخذتُ المنظار من الخال، ونظرتُ إليهما. رأيتُ اثنين من الفتية، أكبر مني، لكنْ؛ ليس بكثير. ينظران باتّجاهنا أيضًا. أحدهما يرتدي قميصًا أخضر، والآخر أحمر. تنفَّستُ الصُّعداء.

شرحتُ ببراعة: "هؤلاء ليسوا الأخوة روما. بل من الغجر".

"اسمعوا هذا! هو فتيّ، لكنه يعرف!" هزَّ الخال يازن رأسه بسرور. الحقيقة هي أني لا أعرف على الإطلاق لماذا هو سعيد جدًا.

شرح الخال: "إنه الأمر نفسه مارتي. اعتدنا أن نُطلق عليهم اسم غجر. والآن نسمّيهم روما. الاسم مختلف. هم ذاتهم".

أصرّيتُ: "ولماذا الاسم مختلف؟"

"لأن اسم غجر مهين. هذا هو السَّبب".

لا أرَى أيّ فرق، لكن ذلك ليس مهمًا. المهمّ هو التالي:

قلتُ: "هل سيهاجموننا؟" وكنتُ بالكاد أكبح الخوف في صوتي.

قال الخال يازن مبتسمًا: "لا، لا تقلق، لا يهاجم الصيادون الناس. فقط الحيوانات الضعيفة".

"مرّة عندما كنتُ صغيرًا، كنتُ أزور جدّتي، وجاءت امرأة غجر.. رومية إلى الباب مع فتاة كانت في مثل سنّي. دعتْهما جدَّتي إلى الفناء، وجمعت ملابسي القديمة في كيس لها. لم تعد الثياب بمقاسي. عندما غادرتا، بدأتُ أبحث عن لعبتي المفضّلة، الشاحنة الحمراء. بحثتُ هنا وهناك، لكنْ؛ لم أجدها.

ثارت جدّتي: "الغجر! قبيلة لصوص!"

تحمَّس الخال يازن: "هذا ما هم عليه، أوغاد! تراهم هنا. يسرقون السَّمك من الطيور! ليبيعوه مقابل أربعين ستوتينكي، أف! وماذا ستأكل الطيور؟".

ارتاب الخال: "ربمّا ضيَّعت شاحنتك. ربمّا لم تأخذانها، ليس علينا أن نصنّف الناس، يا فتاي. هناك لصوص من شعب روما ولصوص بلغاريين. أناس من كل لون وجنس، متباينين".

أنا واثق من أني لم أضيِّع شاحنتي. لكني لم أجادل. ولن أخبر الخال يازن كيف سرق الغجر أمّي في الماضي. آسف، روما..

رأينا بطّتين على الجانب.

قال الخال يازن: "هنا! سوف نفلتها هنا!"

نهض ومشى مترنّحًا نحو البطّة التي بدت هادئة، لكنْ؛ عندما رأته، بدأت بتحريك جناحيها. أخذها، وأفلتها في الماء. انزلقت البطّة بيُسر على السَّطح، لكنْ؛ لم تتقدّم نحو البطّات الأخريات. وبدلًا من ذلك، سلكت اتّجاهها الخاص. أنا سعيد لرؤيتها حُرّة في المياه ثانية. ثمَّ أتذكّر هدف القنص، وأشعر بغصّة في حلقي.

اقتربت الرحلة من نهايتها. دفع الخال يازن المركب على الرصيف، ترجَّل، وساعدنا على الخروج. دفع خالي له، شكرناه، وتوجّهنا نحو السَّيّارة.

الأخ روما

نحن صيّادون. نصيد؛ لكي نأكل. يسري هذا في دمنا منذ زمن بعيد. هذا ما علَّمه لنا آباؤنا، وهذا ما سوف نعلّمه لأولادنا. نعمل منذ سنٍّ مبكرة، فنمدّ يد المساعدة. نحن ثمانية في البيت، الطَّعام لا يكفي. غدنا ليس مضمونًا. هناك فقط اليوم، والبحيرة وذلك السَّمك هما يومنا. لأنه لا يوجد لنا عمل، على الإطلاق. وجد أبي أنبوبين نحاسيين منذ بضعة أيام، وباعهما، فاشترينا قليلًا من الطعام. أحد أعمامي مُغنّ، يملك ثلاث شقق في صوفيا، هو لا يذهب إلى البحيرة، لكننا نذهب، لأننا لو لم نفعل سوف نتضوَّر جوعًا.

جعلونا ندرس، لكنْ؛ كيف يمكنني أن أدرس وأنا جائع؟ لماذا يظنّ

الأطفال البلغاريين السُّوء بنا؟ إنهم خائفون. وكيف لا يكونوا عندما يتمّ تهديدهم بنا طوال الوقت. وإذا كانوا على أشدّهم من الخوف، أريد أن أُخيفهم أيضًا؛ لأنهم جبناء جدًا، يا لهم من أطفال... يطلبونه، فيحصلون عليه.

مررتُ بامرأة، طفلها يبكي. اهدأ، أو سيأتي الغجري؛ ليسرقك! وددتُ أن أقول لها: "انظري جيدًا نحوي. أنا ذلك الغجري. أرتدي بذلة، وأحمل محفظة جلدية. هل أنا مخيف؟"

هل أنا مخيف؟

لماذا في وسع البلغاريين صيد السمك، وشعب روما لا؟ السَّمك متشابه، لكن الناس لا. يستعمل البلغاريون أدوات باهظة الثمن، في حين يصيد شعب روما ما يكفي من السَّمك بيديهم، ويتمكّنون من إطعام عائلاتهم الليلة.

يمكن لشعب روما أن يُطعم عائلته بسمكة واحدة. وليس حتّى باثنتين، كما فعل يسوع.

إنه طفل، أحبَّ اللعبة، وأخذها. الأطفال لا يسرقون، إنهم يأخذون. أحبَّ اللعبة، وأخذها. لدى طفل روما عدد قليل من الألعاب، واحدة بالكاد. تبكي ابنة أخي، وتطلب لعبة. لكن الأمّهات البلغاريات لا يقلنَ لأطفالهنّ: أعطها اللعبة؛ لتلعب بها لفترة، ثمّ تُعيدها إليك. لهذا اشترت لها أمّها لعبة جميلة، وقالت لها أن تفعل الأمر نفسه. وكان الأطفال البلغاريون يطلبون لعبتها، لكنها لم تُعطها لهم.

حكى لي أبي عن فتاة صغيرة، أخذوها في بورغاس منذ زمن طويل عندما كان صغيرًا. كانت تلعب بمفردها في الشَّارع. كان لديها شرائط

بيضاء وتسريحة ذيل الحصان مموّجة-غامقة، لامعة، وملفوفة مثل أسلاك. كانوا كلهم فتيان في البيت، وجدّتي أرادت فتاة. أوقفَ جدّي العربة أمام الفتاة ذات الشَّعر المموّج، ونظرت إليه بعينيها الواسعتين الداكنتين، مدوّرتين وفضوليتين.

قال جدّي: "هيا، عزيزتي، اقفزي! هيا سنذهب حول العالم في هذه العربة، سوف تغنّين وترقصين طوال حياتك، وسوف نعتني بك مثل أميرة صغيرة، هيا، اقفزي!"

تعجّبت الفتاة، ثمّ قفزت.

لوَّح جدّي بالسُّوط، صعد عمود من الغبار، وانطلقوا... عربة مليئة بفتيان قذرين وأنوفهم تسيل، وفتاة صغيرة نظيفة عسلية اللون، ترتدي فستانًا زهري اللون بكشاكش عند الحواف وشرائط كبيرة بيضاء. لم يسبق لأبي أن رأى شيئًا بهذا الجمال. نظر إليها مطوّلًا ونظر... إلى أن جاءت الشُّرطة، وأمسكت بهم، وأعادتْها على الطريق المغبرّ، ونظر ثانية، والتفت إلى الوراء إلى العدم...

في العدم الذي اختفت فيه، متحوِّلة إلى بقعة صغيرة، أميرة صغيرة في السَّيارة التي تقلُّها، التصقت يدها العسلية بالنافذة، مدوَّرة وحلوة مثل كعكة العسل، أردتُ أن أطحنها بأسناني، قال أبي، يد كعكة العسل هذه، هذه البلغارية العسلية، أن أستبقيها في داخلي إلى الأبد، أن أتّحد حتّى النهاية مع الأشرطة البيضاء، والفستان الزهري النظيف ورائحة الحليب والحلوى البنفسجية...

خدَّاها السمينان وساقاها الصغيرتان، وجواربها البيضاء، حذاؤها الأبيض وإحدى شرائطه مفكوكة، يمكنني أن أراها الآن، ليلة بعد ليلة بجانب

إيش البلغارية الصَّغيرة العسلية التي أصبحت امرأة عسلية ريَّانة، لوَّحت لي من سيارات أخرى، بيدها الملتصقة على نافذة السيارة كل ليلة، ليلة بعد ليلة، حتّى اللحظة التي ستأخذني بيدها العسلية، ولن تتركني أبدًا، وسوف نمشي معًا يدًا بيد في عالم واحد، والعسل من يدها يتدفّق في يدي، ويربطنا إلى الأبد...

والآن هذا الفتى الذي ينظر إلينا مرعوبًا للغاية، كان يمكن أن يكون أخي الصَّغير، وكنا لنصيد في البحيرة معًا... هل كنت لتخاف مني حينها، يا أخي؟ أو كنا سنصيد هنا معًا السمكة تلو الأخرى، كثيراً من السمك، وسوف ينظر إلينا أطفال آخرون، وسوف يخافون مني ومنك، لأننا سنكون واحدًا، لأننا واحد، لا تربطنا صلة نسب، لكنْ؛ أبدية...

-٣٨-

عدنا حوالي السَّاعة التاسعة. كان لا يزال أمامي متّسعٌ من الوقت للذهاب إلى بركة المياه المالحة. اتَّصلتُ بأمّي، وقالت إنهما كانتا في طريقهما إلى هناك. طلبتُ من خالي أن يوصلني.

مازحني خالي: "في البداية، كنتَ تشتكي، لكنْ؛ الآن يبدو أنكِ أحببتِ المكان"، وكانت عيناه تضحكان.

تظاهرتُ بأني لم أسمعه، وحدَّقتُ من النافذة.

سأل: "هل سعدتَ برحلتنا؟"

أجبتُ: "كثيرًا جدًا".

كانت أمّي وجدّتي تنتظرانني عند بركة المياه المالحة. تركني خالي على الرصيف، ولوَّح لهما من بعيد.

قلتُ: "شكرًا لك، خالي"، وشعرتُ برغبة في معانقته. لكننا رجال في نهاية الأمر...

"أهلًا بك. أنا مسرور؛ لأنك أحببتَها. وأنا في انتظار قصّتك!"

خرجتُ من السَّيارة، التفتُّ، ولوَّحتُ له، وبدأتُ أمشي نحو البركة المالحة.

ستيفان

أحبُّ اللحظات التي تسبق انبلاج الفجر. الفترة الوجيزة من الوقت التي تبشِّر بمقدم النَّهار. كما لو أني أستبق الأحداث. أخطِّط لنهاري، أحضِّره، وأنزلق عليه مثل راكب الموج. لا يهمّ أني لا أركب الموج فعليًا. اللحظة التي تسبق الفجر هي لحظة عزلتي، ولحظة الاتّصال الأنقى مع كل ما يحيط بي. آخذ شهيقًا، ثمّ أزفره. ثمّ أخذ شهيقًا آخر، وأزفر. هواءً مالحًا، له رائحة ومذاق كالحياة. يمتلئ صدري بالبحر، ويبقيه هناك طوال اليوم، حتّى صباح اليوم التالي. أسبح في الصَّيف، أحيانًا في الشتاء أيضًا.

حاولت أمّنا أن تستدرجني إلى قضية إنقاذك. لكني لا أرغب بالتَّخلي عن عزلتي. لو شوَّشتها، سوف يفقد النهار توازنه المعصوم، وسوف أتحطَّم في الأمواج... وربما أغرق. لا أعرف إذا كانت أمّي تتفهّم ذلك. لم أشرح. لا جدوى من الشَّرح. وهي لم تصرّ. لا أعرف إذا كنت تفهمينني أيضًا. هاها! يا للسخرية! لا يستطيع الكاتب أن يجد الكلمات، لاسيَّما عندما يكون في مساس الحاجة إليها. لكنْ؛ ألسنا جميعًا نحتاج ذلك أحيانًا، أن نكون مفهومين دون كلمات؟ أن نُسمَع فيما لا ينطق...

البحيرة عند شروق الشمس سِحْر من نوع مختلف. لكني لا أتردّد كثيرًا إلى هناك. لحسن الحظّ أن مارتي موجود؛ ليمنحني العذر... مارتي نبيه وحسَّاس.. أحبّ المنحى الذي يأخذه في نشأته. إنه هيَّاب بعض الشيء، لكنه جيد، وهو حقًا يرى أمورًا. طريقته في النظر إلى البجعاتّ!؟ باندهاش. والأسئلة التي يطرحها، طفولية وناضجة في آن.

البجع طيور صامتة.

مثل جبل ستراندزا والسَّائرين على الجمر والحوريات والجنّيّات

فيه. ضعتُ في أجماته وبراريه كل مرّة. عندما يقولون " في عمق الغابة المعتمة"، لا بد أنهم يقصدون ستراندزا. يصعب أن تصدِّق إمكانية وجود مثل هذه البقع السِّرّيّة في ذلك الجبل الصغير- بعيدة المنال، لا تهزم، ومغفَلة في آن.

بوجود هذا العالم القريب جدًا، المرئي، في المتناول، ليس علينا أن ندمِّر أنفسنا؛ لأن شخصًا لم يعد يحبّنا. هذا مرفوض وسخيف. لهذا لا أقول لكِ شيئًا. وماذا في وسعي أن أقول؟ قالت أمّنا ما فيه الكفاية و... صيفها الآن بات له معنى. بالنسبة للفتى، بأيّ حال، يمكنني، وأفعل علاوة على ذلك. وقد أتى على نحو طبيعي، بالنسبة لي. هو وحده مَن يستحقّ العطف؛ لأنه وجد نفسه في ذلك الظرف دون أن يختار.. سوف يكون بخير، لكنّ روحه الصَّغيرة ستحمل جرحًا صغيرًا... لكنْ؛ مَنْ بيننا، نحن الذين نعيش في العالم، لا يحمل جراحًا صغيرة في روحه؟!

هل تتذكّرين؟ كيف فهمنا بعضنا البعض دون عناء. ورأينا العالم بطريقة مختلفة عن الآخرين. وأردنا أن نتجوّل فيه. ونقلبه رأسًا على عقب. توأمٌ سيامي. هذا يجعلني أضحك الآن. ثنائيا الجنس، هذا ما كانوا يدعوننا به.. كان هناك زمن، بعيد كزمن أسطوري، عندما لم أكن أعرف أين أنتهي، وأين تبدئين. هل تتذكّرين شيئًا؟ أيّ شيء؟

لحسن الحظّ أن والدتنا صاحبة الأثر الإيجابي على حياتنا موجودة؛ لتحافظ على استقرار العالم واستمراريته يومًا بعد يوم...

-٣٩-

التقت أمّي أبي في يوم الطَّلَبَة. كانت في السنة الجامعية الثانية والأخيرة، وكانت تحتفل مع طَلَبَة آخرين في بوروفيتز، وكان هو هناك مع بعض أصدقاء الدِّراسة. أمضى أصدقاء أمّي جميعًا الليل يرقصون في حين كانت جالسة تنظر إليهم.

وهكذا لاحظها أبي. الفتاة التي لم تكن ترقص. أو بالأحرى، الفتاة الجميلة التي لم تكن ترقص، كما يؤكِّد دومًا. لم يرقص والدي أيضًا، لم يكن الرَّقص شأنه. لكنْ؛ عندما عزفوا أغنية بطيئة اللحن، ذهب، وطلب منها مراقصته. تفاجأت أمّي حقًا. كانت تقول عندما روت قصّة لقائهما لاحقًا، إنَّ أكثر الرجال وسامةً في البار، طلب منها هي من بين الجميع أن تُراقصه. هذا دومًا منح والدي شعورًا حسنًا. حدث في أثناء الرقصة شيء ما.

تحدَّثا كلاهما عن نوع من الكيمياء. قال إنه عندما عانقها أدرك بأنه ليس عليه أن يدعها تذهب ثانية أبدًا. وقالت إنه عندما لفَّها بذراعيه، شعرت بالأمان وبالحماية. كل هذا من رقصة واحدة. لا يمكنني تخيّل أن هذا ممكن على الإطلاق. ودون حتّى أن يتحدّثا في أثناء الرقص. تعارفا فقط. عندما انتهت الأغنية أخذها إلى طاولته، وعرَّفها على أصدقائه.

ذهبا للنزهة في الجبل في اليوم التالي. وعندما عادا إلى صوفيا، استمرّا في اللقاء. تخرّجتْ أمّي في السنة التالية، وبدأت هي ووالدي يعيشان معًا. تزوّجا بعد سنة، ثمّ ولدت.

-٤٠-

كانت البركة مليئة بالنَّاس، وفيها اليوم عدد أكبر من المعتاد. تساءلتُ عن السَّبب. نظرتُ حولي بحثًا عن سيلڤيا، ورأيتُها خلف نظّارتها الشمسيَّة. كانت أمّي وجدّتي مسترخيتين في المياه، بينما كنتُ لا أزال متخلّفًا عنهما.

قالت جدّتي: "هيا، مارتي، ماذا تنتظر؟"

"سأذهب لرؤية صديقتي".

قالت جدّتي مندهشة: "صديقة؟" ثمّ تبادلَت وأمّي النَّظرات، وانفجرتا بالضحك. لم أفهم ما المضحك في الأمر. تركتُهما، وذهبتُ قرب سيلڤيا.

قلتُ: "مرحبًا".

حدَّقت أمّها في وجهي، وشعرتُ بالإحراج.

حيّيتُها أيضًا: "صباح الخير".

أجابت سيلڤيا: "مرحبًا. كنتُ أنتظرك. أمّي، هذا مارتن".

مدَّت لي يدها، وابتسمت: "ڤيارا. فرصة سعيدة".

"يمكنه أن يجلس معنا قليلًا، صحيح، أمّي؟"

"نعم، بالطَّبع".

جلستُ قرب سيلڤيا.

سألتْ سيلڤيا: "أنتَ من صوفيا، صحيح؟"

"كيف عرفتِ؟"

"من لهجتكَ. ماذا تفعل هنا؟"

"مع أمّي، نزور جدّتي، وأنتِ؟"

"نحن نزور أيضًا أصدقاء أمّي. لكنهم ليسوا هنا، فقط أعطونا المفتاح، نحن من ڤيليكو تارنوڤو".

"هل تحبّين بورغاس؟"

"أحبُّ البحر والبحيرة. لا أحب الطِّين كثيرًا، لكنْ؛ له أثر سِحْري على بشرتي، وسوف لن يكون لديّ تجاعيد أبدًا".

"سيلڤيا، ماذا تقولين؟ ألستِ صغيرة جدًا على التجاعيد؟"

قالت سيلڤيا: "أوه، أمّي، أنت فقط لا تفهمين قصدي!" وأدارت رأسها باتّجاهي.

قلتُ لها: "رأيتُ كثيرًا من البجعات اليوم".

" كيف تبدو البجعات؟" أرادت سيلڤيا أن تعرف.

وصفتُها لها، وجميع الطُّيور الأخرى التي رأيناها. أخبرتُها عن رحلة المركب، عن الأخوة روما سارقي الصَّيد، وعن أهداف القنص. أصغتْ حابسة نَفَسها. وفي النهاية، قالت: "أنت ماهر جدًا في رواية القصص! تخيّلت كل شيء. البجع رائع حقًا".

قالت أمّها: "سيلڤيا، جلسنا طويلًا جدًا. علينا الخروج".

"سأسأل أمّي، إذا كنا سنغادر أيضًا".

أجابت جدّتي بدلًا عن أمّي قائلة إننا سنبقى خمس دقائق أخرى. عدتُ إلى سيلڤيا.

"خمس دقائق أخرى. هلَّا انتظرتنا عند الطين؟ أو على الشاطئ؟"

أجابتْ: "سوف ننتظر"، وأمسكتْ بذراع أمّها.

بدأتا تسيران ببطء عبر الحشد. نظرتُ من حولي. كان معظم الناس في مجموعات من مثنى أو ثلاث، لكن البعض بمفردهم. لفتت انتباهي سيدتان مستلقيتان على بطنيهما قبالة بعضهما، وتتحدثان. تعتمران قبّعتين من اللِّبّاد، وأكتافهما مَكسوَّة بالملح. وأتذكّر التماسيح ثانية، ودندي الذي ابتسم لنا ابتسامة مداهنة عندما مررنا به في طريقنا للخروج.

-٤١-

كانت سيلڤيا ووالدتها مَكسوّتين بالطين تقريبًا عندما توجَّهنا نحوه. ذهبنا إلى جوارهما. ألقت أمّي وجدّتي التحية، وعرَّفتا عن نفسيهما. بدأتا تتحدّثان مع والدتها، بينما كانتا تُلطّخان نفسيهما بالطين. التفتتْ سيلڤيا برأسها نحوي، وسألتْ: "هل يمكنكَ أن تدهن ظهري ببعض الطين؟"

لم أكن متيقّنًا من هذا. نظرتُ إلى والدتها، لكنها كانت لا تزال تتحدّث مع والدتي. غرفتُ بعض الطين، وبدأتُ أدهن به ظهرها. كانت بشرتها الذَّهبية مَلساء حقًا. رأيتُ وبرًا ذهبيًا، وأردتُ حقًا أن أقبّله. تلك الفكرة أربكتني كثيرًا، وأنهيتُ الأمر سريعًا.

"شكرًا لكَ. هل تريد أن ألطِّخ ظهركَ أيضًا؟"

"حسنًا..."

"الْتَفِتْ".

غرفتْ سيلڤيا بعض الطين، وبدأت تطبّقه على ظهري. كان مَلمسه جيدًا جدًا حتّى سارعتُ بالقول:

"هذا يكفي، شكرًا لك".

ثمّ التفتُّ نحوها. بدت لي سيلڤيا جميلة جدًا مع أن الطين كان يغطّيها تمامًا، حتّى على شعرها الفاتح اللون المعقود عاليًا في تسريحة

ذيل الحصان، وبعينيها الرماديتين اللتين لا تطرفان، وبخلاف أيّ فتاة أخرى التقيتُها سابقًا. حسنًا، ربمّا لا تفوق أليكس جمالًا، لكنّها مختلفة. أليكس دومًا مرتّبة ونظيفة، لا يمكنني تصوّرها في هذا الطين إطلاقًا.

وحالما فكّرتُ في ذلك، تصوَّرتُ وجهها المسوَّد يبدو غاضبًا حقًا، وغير مرتاح.. فضلاً عن ذلك، أليكس دومًا عذبة جدًا، وتبتسم بغمّازيتها الظريفتين. من جهة أخرى، لا تبتسم سيلڤيا كثيرًا، وتتحدّث كالكبار. أشعر بالضِّيق بطريقة مختلفة مع كلّ منهما. مع أليكس، أجزع من قول أو فعل ما قد يجرحها، بما أنها حسَّاسة جدًا (هذا ما تقوله أمّي: "أليكس حسّاسة للغاية!"). مع سيلڤيا أقلق بشأن التصرّف كطفل صغير، ومن تفكيرها بأني شديد الحساسية. يُخيّل إليّ أن الحساسية يجب أن تكون صفة تخصُّ الفتيات فقط.

قالت سيلڤيا: "لنذهب"، وأمسكتْ بذراعي.

"ماذا عن والدتينا؟"

"ستلحقان بنا".

كانت أمّي وجدّتي مَكسوّتين أيضًا، وتستعدّان للخروج.

بدأنا جميعًا نسير على الشاطئ معًا. مشينا سيلڤيا وأنا في المقدّمة.

طلبت مني سيلڤيا: "هل يمكنك أن تصف المشهد؟ أمشي يوميًا، ولا أزال أجهل كيف يبدو".

تساءلت لماذا لم تطلب من أمّها.

قالت: "لا أطلب من أمّي؛ كي لا أزعجها. كلّ تذكير بواقعة أني لا أستطيع أن أرى يحزنها"، كما لو أنها تقرأ أفكاري.

"هنا الرَّمل أسود اللون. كثير من الناس عراة تمامًا. معظمهم من الرجال. يبني فتى صغيرٌ قلعة من الرَّمل، لكنَّ الأمواج تصل إليها دومًا، وتهدمها. كلَّما اقتربنا من المطاعم، ازداد عدد الناس على الشَّاطئ. مثل كثيِّب النَّمل. الفرق أن هؤلاء الناس جالسون على مناشفهم، بينما النَّمل يهرع هنا وهناك. هناك عدد كبير من الناس في الماء أيضًا، كبار وصغار. هناك فتاة تصعد على كتفي والدها، يدفعها نحو الأعلى، تقفز وتغطس في المياه. ثمّ تصعد من جديد. لكن الفتاة الأجمل على الشَّاطئ لها شعر بني مربوط عند عنقها. إنها سوداء".

"هل هي إفريقية؟"

"لا. أظنّ أنها ملطَّخة بالطين فقط".

بدأت سيلڤيا تضحك. إنها المرّة الأولى التي أسمع فيها ضحكها.

"أنت ماهر في الوصف. رأيتُ كل شيء. أيضًا عندما كنتَ تخبرني عن البحيرة. موهبتك استثنائية".

لم أدرِ ماذا أقول على الإطلاق. لهذا التزمتُ الصَّمت. هي مُمسكة بذراعي، وأنا أتمنّى ألا نصل إلى نهاية الشَّطّ أبدًا.

والدة سيلڤيا

الكثير من الترقُّب، التحضيرات، الفرح، الأمل، ألم مجهد.. ثمّ يقول لك الطبيب: "هذه الطفلة لن ترى العالم قطّ. أو أيّ شيء آخر علاوة على ذلك. حرفيًا. إنها عمياء. مثل قطَّة وليدة. الفرق أن القطّة سترى، وابنتك لن تفعل".

لا يمكن أن يكون صحيحًا. إنه صحيح.

أنا أتهاوى. لماذا أنا؟ لماذا طفلتي؟ هل يمكنك تخيُّل ذلك، لينا؟ هل يمكنك تخيّله على الإطلاق؟ العالم يتضبّب. تعميني الدموع.

يريد زوجي ميلين أن يقول شيئًا، لكنه لا يعرف ماذا. إنه يبكي أيضًا، ويعانقني.

فقط سيلفيا لا تبكي. يتّسع فمها الصَّغير فيما يشبه ابتسامة.

أشعر فجأة، كما لو أن صدمة كهربائية صعقتْني. لماذا ننتحب ونندب؟ انظري إلى الفتاة الجميلة المعافاة التي لدينا! العلَّة ليس قاتلة. سوف نتدبّر أمرنا.

كبرتْ، وأصبحتْ هادئة وانطوائية إلى حدٍّ ما. مثل شخص بالغ، كما لو أنها ولدت كبيرة سلفًا. هي ليست مثل باقي الأطفال. لا تلعب كثيرًا. تعلَّمتْ أن تتعرّف إلى العالم بأصابعها، من خلال حاسَّتي الشَّمّ والسَّمع. حالما أقف عند الباب تقول: "أمّي". أيضًا يبدو أن طفلتي ترى أكثر من الرؤية. والأشياء التي لا تلفت انتباهنا لا تُفلت منها. ما إن تسمع صوت شخص حتّى تعرفه. أحبّهم، أو لا. لكنْ؛ كيف؟ كيف قرّرتِ بهذه السرعة؟ امنحيهم فرصة، أنتِ لا تعرفين شيئًا عنهم. أعرف، أعرف. هكذا هي ابنتي سيلفيا. كيف تتركين طفلة عمياء بمفردها؟ أنت لا تفعلين، ولا حتّى لثانية... لن يجرؤ المرء على فعل ذلك مع المبصر، فماذا بقي لغير المبصرين... لقد تركتُ عملي.

أعطيناها عصا عندما كانت في الرابعة من عمرها. قلنا لها إنها عصا سِحْرية، خصّيصًا من أجلك. سوف تحقّق لك كل أمنيّاتك. وسوف تريكِ الطريق في العالم.

أخذت العصا، ومشتْ. ثمّ تركتْها. قائلة لا أحتاجها، لدي عصا سِحْرية

هنا، مشيرةً إلى قلبها، سوف تُريني الطريق. كانت عنيدة منذ صغرها، إذا صمّمت على أمر ما، لن تتراجع. أمضت ساعات تمشي في أرجاء المنزل، تتعلّم طريقها.

لم تكن ترتطم بالأشياء. إذا لم يكن المرء على علم بأنها كفيفة البصر، لن يكون قادرًا على معرفة ذلك. وهكذا حتّى اليوم الذي اصطدمت فيه بلوح زجاج، وهي واقفة على الرصيف. كان متروكًا إلى جانبنا في الشارع. أسمع صرخات. يلتفت قلبي. هذا ليس صوتها... وهذا أشدُّ ما أفزعني. لا يمكنني أن أتحرّك. كما في حلم؛ حيث تحتاجين أن تركضي، لكنْ؛ لا تستطيعين أن ترفعي قدميك عن الأرض. ثمّ ركضت. لم تتوقّف الصرخات. الثواني الأطول في حياتي... رأيتُ سيلڤيا وسط الرصيف، وظهرها لي وساقيها مَكسوّتين بالدم تحت ركبتيها. الدم على الأسفلت أيضًا. دمها. اختطفتها، ثمّ انهارت بين ذراعي. بصمت. لم تبكِ. أحد الجيران يقول لي شيئًا...

كيف حدث؟ لم أسمعها. بطريقة ما جرجرتُ نفسي إلى البيت، واتّصلت بوالدها. جاء على الفور، وقادنا إلى المستشفى. وانفجر فجأة: هذا هو! عليك أن تأخذي العصا. هذا ما قاله، العصا. انتهى أمر العصا السِّحْرية. ولم تكن قد تجاوزت الخامسة من عمرها. من ثمَّ وفقط عندئذٍ، تدفَّقت الدموع من عينيها الرماديتين. كبيرة ومدوّرة كاللآلئ. انفطر قلبي. ضمَّدوا ركبتيها، وأعطوها عكازاً، وعندما تعافت أخذت العصا بنفسها، ولم تنبس بكلمة أبدًا.

لم تكن اجتماعية كثيراً. لم تلعب. طفلة استثنائية. أمضت السَّاعات تستمع إلى العالم. استنشقته. لم أعرف يومًا بماذا تفكّر.

تخطَّينا روضة الأطفال. حان موعد دخولها إلى المدرسة. انتقلنا إلى

فارنا. أنا وهي. والدها يعمل. أرى في باحة المدرسة صفًا من الأطفال يمسكون بأيدي بعضهم البعض، كما لو أنهم يلعبون. لكنهم في الحقيقة يساعد بعضهم البعض. يبدو الأول مبصرًا، يقود البقية إلى المطعم. في الممرّات، يمشي البعض بتردّد، وآخرون يمسكون بالدَّرابزين على الجدار، وهم يمشون على طوله. كانت سيلڤيا الوحيدة التي تُمسك بعصا. تقول، لا أريد أن أكون هنا، لا أريد أن أغادر أيضًا. ثمّ نمرّ بأوقات عصيبة في تجريب المدارس السَّائدة في تارنوفو. مُدرِّسو التعليم الخاص قلّة، ولا يمكن أن يتمّ الأمر دون مُدرّس. كل واحد منهم مسؤول عن اثني عشر طفلاً. جميعهم من ذوي الاحتياجات الخاصة على تنوّعها. هل هذا هو ما ستحصل عليه سيلڤيا؟ تدريس عاجز لطفلة مصابة بعجز؟

لكنْ؛ ليس لديها عجز. بل على العكس. هي تزداد ذكاء ونضجًا إلى حدٍّ يخيفني أحيانًا. هل هذه الطفلة ابنتي؟ قرّرتُ الذَّهاب إلى المدرسة معها. لكن هذا الأمر ليس بسيطًا أيضًا... قيل لي إنه ليس مسموحًا، لماذا؟ قالوا ماذا لو أن الجميع بدؤوا يأتون مع أطفالهم.. حسنًا ومَن سواي فعليًا؟ عجبتُ من منطقهم... ليس من أحد بعد، لكنْ؛ إذا منحنا الإذن لواحد.. بدأتُ أكتب الرسائل. إلى المجلس البلدي، إلى وزارة الشؤون الاجتماعية، إلى وزير التربية. تلقّيتُ إجابات، لم تفدني بشيء. قال زوجي، بأي حال، إني مجنونة. أخيرًا كتبتُ إلى رئيس الوزراء. ووضعتُ صورة لسيلڤيا. طلبتُ منه الإذن للذهاب إلى المدرسة معها. خلال شهر حصلتُ على الرّدّ! "أسمح بذلك، سيّدتي. وحظًا سعيدًا لطفلتك، عساها تكون طالبة ممتازة!" إذنْ؛ أنا مجنونة، هل أنا مجنونة الآن! زوجي هادئ. لكنه هادئ منذ سنوات..

أنا دومًا بجانبها. أساعدها في القيام بالمواضيع الدراسية، وأشرح أمورًا

لا تستطيع رؤيتها.. هي طالبة متفوّقة. أنا أشعر بالحزن فقط؛ لأن ليس لديها الكثير من الأصدقاء. هي مُنطوية وصامتة طوال الوقت. لكنْ؛ لا يبدو أنها تعاني... يبدو كما لو أنها بخير بتلك الطريقة. والآن تصادقتْ مع مارتي... إنه طفل طيّب.

انظري، أنا أفهمك. أنا أفهمك حقًا... بلدتنا ليست كبيرة. من المرجّح أن الخبر كان شائعًا، لكني كما تعلمين كنت مركّزة تمامًا على الطفلة، لذا؛ فاتني سماعه ..إلى أن رأيتُهما ذات يوم. كنا عائدين من متجر في القسم الجديد. كان الفصل شتاء والظلام قد حلَّ. مايلن يعمل مجدّداً، ظاهريًا حتّى وقت متأخّر. رأيتُه يخرج من واحد من تلك المطاعم الجميلة التي لها إطلالة على الجبل.

كان بجانبه امرأة ترتدي معطفًا جلديًا. يطوّق خصرها بذراعه، وهي ترفع رأسها إليه، وتقول شيئًا. وهو يصغي إليها.. وينظر إلى وجهها. ونظرتُ إليها أيضًا، ولم أفهم، لم أفهم أي شيء - هي ليست أصغر مني، ولا أجمل مني.. إنها أكثر نحولًا بقليل. لكنها ليست عارضة أزياء. وحتى لو كانت، لم أفهم لماذا يعانق مايلن خصرها. بينما أنا أعتني بطفلتنا. يا إلهي، عقلي لا يحتمل.

جيد أن سيلفيا لم تكن تحمل معها عصاها، وإلا لكانت لفتت الكثير من الانتباه... أمسكت بها من كتفها، وعبرنا إلى الجانب الآخر. هو لم يرنا. من حسن الحظّ أنه كان يتطلّع إليها... وتظاهرتُ بالعمى. وهكذا جرت الأمور منذ ذلك الحين. لسنوات. أي نوع من الحياة هذا؟ لماذا تحتاجين إلى رجل في البيت، إذا كان دومًا يشيح ببصره؟ على الأقلّ، لديك عمل، ويمكنك أن تسدّدي الفواتير... ما حاجتك به حينها؟ هل تفضّلين أن يكون بجانبك، لكنه يذهب إلى أخرى؟ ثقي بي، لا تريدين ذلك. لكني مقيَّدة، لا يمكنني فعل أي شيء... لا يمكنني أن أحظى بعاشق، ولا يمكنني أن أتركه. هو ربمّا ينتظر ذلك. كيف سنتدبّر أمرنا إذا غادرنا؟ على الأقل، أنت حُرّة.

-٤٢-

أُعجب خالي بقصَّتي عن البحيرة. قال إنها جيدة، وإني موهوب حُكمًا. هذا بالضبط ما قاله. حُكمًا. قال أيضاً إنه سيرسلها إلى محرّر مجلّة أدبية على معرفة به. خالي مدهش!

حدث أمر جيد آخر - لم تعد أمّي حزينة. لاحظتُ ذلك عندما توقَّفتُ عن التفكير في كونها حزينة. ثمّ رأيتُ عودة البريق إلى عينيها. أخذتها خالتي روميانا إلى مصفّفٍ للشعر، والآن شعرها أقصر، وتبدو أصغر سنًا بتلك الطريقة. كان يُفترض بنا الليلة الماضية أن نذهب معها ومع أليكسندر. لكنْ؛ بدلًا من أن نلتقي في الخارج أتيا إلى منزلنا. أخرجت الخالة رومي علبة كبيرة من حقيبتها، وبدأت تضع الزينة على وجه أمّي. جلست جدّتي قربهما، وراقبتْ، وذهبتُ مع أليكسندر إلى غرفتي. مضت ساعة كاملة قبل أن ينادوا علينا. لكنْ؛ عندما رأيتُ أمّي لم أتعرَّف إليها. كانت لا تزال أمّي، لكنْ؛ أصبحت أيضًا فتاة كبيرة جميلة جدًا. ارتدت تنّورة، وذلك الصَّندل الواطئ النعلين الذي اشترتْه في أثناء تنزيلات الأسعار. فكّرتُ أنها أجمل من مونيكا. تمنّيتُ لو يراها والدي الآن! ربمّا يعود إلينا.

"أمّي، أنت جميلة جدًا!"

"شكرًا لك، يا فتاي"، ابتسمتْ، وعانقتْني.

ثمّ خرجنا.

سلكنا طريقنا المعتاد، مشيتُ أنا وأليكسندر في المقدّمة، ووالدتانا في الخلف. هذه المرّة قرّرتُ أن أتحدّث عن الموضوع.

قلتُ: "التقيتُ فتاة".

"أين؟" أراد أن يعرف.

"في بركة المياه المالحة".

"لا بد أن تكون مخبولة، إذا كانت تذهب إلى البركة".

"لا، هي ليست كذلك. أنا أيضاً أذهب إلى البركة؛ لكني لستُ مخبولاً".

تردَّد لبرهة، لكنه قرّر ألا يجادل.

واصلتُ: "اسمها سيلڤيا".

"هل هي جميلة؟"

"جدًا".

"إذنْ؛ عليك أن تطلب منها الخروج".

"لا أعرف كيف. لم يسبق لي أن فعلتُ".

"نعم. أنت تحتاج إلى تعليم، يا أخي".

"المشكلة هي أن هناك الفتاة الأخرى في صوفيا، أليكس، نجلس إلى جانب بعضنا البعض في الصّفّ".

"هل تتواعدان؟"

"لا".

"إذنْ؟"

"حسنًا، أحبّهما كلاهما. أنا وأليكس صديقان منذ فترة أطول".

قال: "أنت في ورطة، يا أخي، لكنْ؛ لا تفكر كثيرًا. الآن أنت هنا عند البحر، وكذلك سيلڤيا. عندما تعود إلى صوفيا، ستكون أليكس. وهكذا".

كان كلامه منطقيًا، لكنْ؛ شيء ما أزعجني. لم يبدُ صحيحًا. كان لدى أبي كلًا من أمّي ومونيكا، ورأيتُ كم بكتْ أمّي فيما بعد. لا أريد أن تبكي أليكس بسببي. ولا سيلڤيا. لكني الآن أفكّر أنَّ ذلك لم يكن سهلًا على والدي أيضًا. سوف أسأله ذات يوم. سيكون لطيفًا التحدّث عن أمور مثل هذه، كما يفعل الرجال.

-٤٣-

حالما وصلتُ اليوم إلى بركة المياه المالحة لاحظتُ وجود أمر مختلف. كانت تعجّ بالناس كالمعتاد، لكنهم كانوا جميعًا منخرطين في محادثة. كانوا يتحدّثون في هرج ومرج. كانت سيلڤيا وأمّها هناك أيضًا. جلسنا بالقرب منهما.

سألتْ جدّتي والدةَ سيلڤيا: "ما الذي يجري؟"

اقترح رئيس البلدية على المجلس البلدي توسيع المكان حول البركة، والبدء بفرض رسم للدخول. لن يكون الأمر على حاله الصَّيف المقبل.

"مصّاصو الدماء! لن يشبعوا أبدًا. لدينا بركة واحدة، وسوف يأخذونها منا!" لم تتمكّن جدّتي من كبح نفسها، وكان كل واحد يحاول أن يقول شيئًا، ولم يكن أحد يصغي. وجدت الكبار مشوِّقين. يقولون إنهم يريدون أن يجتمعوا؛ ليناقشوا أمرًا، لكنهم جميعًا حقًا لا يريدون سوى أن يستمعوا إلى صوتهم، وليس إلى الآخرين. كان والديَّ أحيانًا يشاهد هذه البرامج المملّة؛ حيث يتحدّث سياسيون ببِذلٍ رسمية عن شيء ما، وكل واحد منهم كان ينتظر بنفاد صبر أن يُنهي الآخر كلامه، فيمكنه أن يبدأ بالتحدّث. ولم أفهم يومًا الفائدة من هذه اللقاءات. كان الأمر نفسه يحدث هنا.

كان رجل مُسنٌّ يصيح: "إبادة جماعية بحقّ المتقاعدين تحكم هذا البلد!" (يجب أن أسأل أمّي عن معنى الإبادة الجماعية).

تابعت امرأة مُسنّة: "ليس لدينا المال للاستشفاء، بركة الماء المالح هي ما يُبقينا أصحّاء".

كان رجل آخر يقول: "الأمر كلّه في صالح أعضاء المجلس البلدي. سوف يحصلون على قدر كبير من المال من العقد، وسنكون نحن المخدوعين".

تواصلت الضجّة، إلى أن ارتفع صوت فوق باقي الأصوات بكلمة واحدة: "احتجاج!"

هدأ الناس، وبدؤوا ينظرون باتّجاه مصدر الصوت.

قال الصوت ثانية بوضوح: "يجب علينا تنظيم احتجاج". تعرّفته، كان صوت دندي.

سأل أحدهم: "أيّ احتجاج؟ مَن سيبالي بنا؟"

"احتجاج بالطين"، أعلن دندي. وبدأ يشرح كيف سنغطّي أنفسنا بالطين، ونحمل شعارات وملصقات، ونمشي على طول الشارع الرئيس، ثمّ نحو مجلس المدينة.

واو، شخص شجاع حقًا، هذا الدندي! لاحظتُ أن أمّي كانت تصغي إليه باهتمام.

كان الناس في البداية هادئين. ثمّ جعلت تُسمع تعليقات:

"حسنًا، لمَ لا؟ ليس لدينا ما نخسره".

"دعهم يرون أنهم لا يستطيعون أن يأخذوا البركة منا!"

"متى سوف نبدأ الاحتجاج؟"

كانت الخطَّة أن يُعرَف موعد اجتماع المجلس القادم؛ كي يبدأ الاحتجاج حينها. كانت جدّتي متحمّسة جدًا للفكرة. أمّي ووالدة سيلڤيا لم تكونا على الدَّرجة نفسها من الحماس.

سألتُ سيلڤيا في طريق عودتنا: "ماذا تفعلين ليلًا؟"

"دومًا الأمر نفسه. نمشي بجوار البحر".

"ونحن أيضًا. على الطريق الرئيس أيضًا".

"ربّما يمكننا أن نمشي معًا".

"بالتأكيد".

وهكذا رتّبت مع سيلڤيا موعدًا.

- ٤٤ -

في الليلة ذاتها، خرجنا مع سيلڤيا، وأمّها، والخالة روميانا وأليكسندر. جلسنا في مطعم على شاطئ البحر؛ لأن الخالة روميانا قالت إنَّ لديها مناسبة للاحتفال، وسوف تستضيفنا. تعرَّضت العائلة بكاملها في مثل هذا اليوم، منذ سبع سنوات، إلى حادث سير. تحطَّمت السَّيارة تمامًا، لكنهم نجوا، وأُصيبوا بجروح بسيطة فقط. قال الجميع لهم إنَّ خروجهم من السَّيارة أحياء كان أعجوبة. وهكذا في هذا اليوم من كل سنة، تستضيف دومًا أناسًا من للشرب، وامتنانًا لنجاتهم. لكنْ؛ لم يتَّضح بالنسبة لي لمَن هي ممتنّة. كنتُ أشعر ببعض الغيرة من أليكسندر؛ لأنه عاش شيئًا مثل ذلك. بعد العشاء، خرجتُ وسيلڤيا وأليكسندر؛ لنجلس على الرمل. سألته عن الحادث، وفيما إذا كان يتذكّره.

قال: "نعم، أتذكّر كل شيء".

طلبت منه أن يحدّثنا عنه.

"كنَّا عائدين من كڤاتسيتي. أمضينا النهار بطوله على الشَّاطئ. كنا متعبين، وفي عجلة من أمرنا للعودة. كان أبي يقود بسرعة كبيرة. يحب القيادة بسرعة كبيرة. كانت أمّي، كالعادة، خائفة، وطلبت منه أن يُبطئ. وفيما هما يتجادلان بهذا الشَّأن، خرجت سيارة من نوع آودي فضّيَّة اللون من منعطف، وانزلقت جانبيًا باتجاهنا. دارت سيّارتنا ٣٦٠ درجة كاملة،

تركت الطريق، واصطدمت بشجرة. حدث كل شيء خلال ثوان. مثل فيلم. أولًا كنا جميعًا في حالة صدمة. عندما فتحت عيني، بدا كل شيء هادئ تمامًا. كما لو أني أُصبتُ بالصمم. ثمّ رأيتُ أمّي وأبي. كان هناك دم على وجهيهما، وظننتُ أنهما قد فارقا الحياة. خفتُ حقًا. لكنْ؛ بعد ذلك شرعا بالحركة، وفتحا عيونهما. كان المعدن متشابكًا حولنا، فلم نتمكّن من الخروج. كان الرجل من السيّارة الأخرى يحاول المساعدة. توقّفت سيّارات أخرى، وطلبت النجدة. حسنًا، كان مخيفًا".

حبستُ أنفاسي، وأنا أصغي إليه. يا لها من تجربة! كانت سيلڤيا هادئة أيضًا. ثمّ مدَّت يديها باتجاهه، مسَّت وجهه، وقالت:

"أنا مسرورة للغاية؛ لأنك نجوت".

بدا كما لو أنه شعر ببعض الإحراج، وتمتم قائلًا شيئًا ما. وشعرتُ فجأة بالأسف. اعتقدتُ أن سيلڤيا مسَّتْني أنا فقط بتلك الطريقة. حدَّقتُ بالبحر.. قاتم وهادئ ومتماسك. كانت الأمواج تتكسّر. بدت مثل راقصات باليه تندفع نحونا، لتتوقّف في اللحظة الأخيرة، وتتكسّر على الرمل، وتتّحد به. شعرتُ بالحزن عليهنَّ؛ لأنهنَّ لا تستطعنَ بلوغنا.

لكنْ؛ حينها حدث أمر رائع. وأنا أنظر إلى البحر في تلك الليلة الصيفية الحارّة، شعرتُ بيد سيلڤيا الصغيرة الباردة تنزلق في يدي.

- ٤٥ -

أصبحت سيلڤيا ووالدتها تأتيان معنا إلى الشَّاطئ في الصَّباح الباكر طوال الأيام التالية. سبحنا في البحر الدافئ، ومارسنا اليوغا والتأمُّل معًا. كنَّا نتأمّل في إحدى المرّات، وخبرتُ أمرًا مدهشًا. رأيت أمّي وأبي منفصلين، ومع ذلك سعيدين. كنت واقفًا بينهما. كانا كلاهما متّصلين بي من خلال خيطٍ من النور. وفهمتُ أنه رغم أنهما ليسا معًا لا يزالان والديّ، وأن هذا لن يتغيّر أبدًا. شعرتُ بسعادة حقيقية لإدراكي هذا. ثمّ رويتُه لسيلڤيا. قالت: "حسنٌ أن والديك منفصلين. على الأقلّ، كلُّ شيء واضح بهذا النحو. والداي يعيشان معًا، لكن والدي لديه كاتيا. وأمّي تعرف بأمرها. وأنا أعرف أيضًا، لأن الجدران في البيت ليست سميكة جدًا. لهذا أمّي وأنا نذهب إلى العطلة معًا، ثمّ يذهب "بمفرده". لكن أمّي تعرف أنه يذهب مع كاتيا. هي فقط تتظاهر بأنها تصدّق أنه بمفرده. لا يمكنني أن أفهم السَّبب حقًا. أو لماذا يكذب أبي عليها".

كنَّا نتجاذب أطراف الحديث ونحن نسير نحو بركة المياه المالحة. كانت سيلڤيا تمسك بذراعي كالعادة. فكَّرتُ في أليكس، ربّما عليَّ أن أُخبر سيلڤيا عنها. في اليوم السَّابق، نشرتْ أليكس صورًا من العطلة مع والديها على موقع فيسبوك. كانت في إحداها بمفردها، ترتدي فستانًا أبيضاً بثنية فوق الركبة، وشعرها الجميل ينسدل على كتفيها، وغمَّازتيها تضيئان وجهها. وضعتُ لها إعجابًا.

وكتبتُ لها رسالة: " كيف حالك؟"

أجابت بعد بضع ساعات: "أنا على أفضل ما يرام. عدنا من اليونان. كانت رحلة جميلة حقًا. كيف الحال في بورغاس؟ متى ستعود؟"

استمرّ الهرج والمرج عند بركة المياه المالحة أيضًا. كان الناس يخطّطون للاحتجاج. كانت جدّتي تشارك في المباحثات. سيلڤيا، والدتينا، وأنا لم نشارك. كانت والدتانا تصغيان، بينما كنّا نتحدّث أكثر، ونصغي أقلّ. لكنّي لا أزال أرى أن دندي كان يتولّى الأمر. أدار النقاش، وعمل على تنظيمه.

لم أعد أجده بغيضًا. علاوة على ذلك، لم يمنحه التخطيط للاحتجاج وقتًا لمغازلة أمّي.

الأمر الآخر الذي لا يزال مستمرًا هو الحَرّ. بالكاد استطعنا أن نتنفّس في طريق عودتنا من البركة. استقلّينا سيارة أجرة عددًا من المرّات، مع سيلڤيا ووالدتها. تقاسمت والدتانا الأجرة. كان الأمر لطيفًا جدًا وسريعًا في سيارة الأجرة! عندما تنتهي الأزمة سوف نعود دومًا بسيارة أجرة.

-٤٦-

عندئذٍ، في خضمِّ كلِّ هذا الحَرّ والنقاشات، قرّر خالي أن يأخذني في نزهة أخرى.

"سوف نذهب في رحلة صيد"، أعلمني.

بدأ قلبي يخفق بشدّة. رأيتُ رحلات الصَّيد على قناة ناشيونال جيوغرافيك. تسير سيارة الجيب عبر الأدغال، ومن حولها يتجوّل الأسود والنمور وحمير الوحش والفيلة، بينما تنزلق الثعابين الكبيرة الثخينة كساق رجل على الأشجار صعودًا ونزولًا. كان واضّحا أني لن أرى حيوانات مثل تلك هناك، لكنْ؛ مع ذلك، فكّرتُ أن رحلة الصيد تبدو مثيرة حقًا. فجأة رغبتُ أن ترافقنا سيلڤيا.

قال خالي: "ألا يفترض أن يكون هذا وقتاً خاصاً بنا نحن الرجال؟" لكنْ؛ حينئذٍ نظر إليَّ، وأضاف مبتسمًا: "حسنًا، سوف نصحبها!" ابتسمت. خالي عظيم!

سارعتُ في اليوم التالي إلى إخبار سيلڤيا. عندما سمعتْ، أصبح وجهها الذي كان عادة ساكنًا جدًا وجدّيًا، شديد الانفعال: "أتمنَّى أن تسمح لي أمّي".

تردّدتْ والدتها في البداية. بدأتْ تسأل إلى أين سنذهب. لكنْ؛ لم أكن أعرف؛ لأن خالي قال إنها مفاجأة. اتصلَّت أمّي بخالي للمرّة الأولى منذ

أن أتينا إلى هنا، وطلبت منه شرحًا. ثمّ ناولت الهاتف لوالدة سيلڤيا. بعد التحدّث إليه، وافقتْ أن تسمح لها بالذهاب. أردتُ أن أقفز من الفرح - رحلة صيد، ومع سيلڤيا! لكني تمالكتُ نفسي، نحن رجال في نهاية الأمر!

لم نغادر باكرًا كالمرّة السابقة. كانت سيارة الجيب تنتظرنا السَّاعة السَّادسة والنصف. جلس خالي بجانب السائق. كان يُدعى الخال مارين، ويعمل في مَحميَّة بودا الطَّبيعية، وهي منظّمة تُعنى بالطيور، بما في ذلك البجع. ذهبنا لنأخذ سيلڤيا. نزلت أمّها معها، وساعدتها على الجلوس بجانبي. انطلقنا.

روى لنا الخال مارين في الطريق كثيراً من الأمور المثيرة للاهتمام. قال إنَّه أحبَّ الطيور منذ نعومة أظفاره. لا سيَّما البجع. ولطالما تجوَّل حول البحيرات. كان يفوِّت الدُّروس؛ ليذهب، وينظر إلى البجع. راقبهم لساعات. ثمّ درس عن الطيور. الآن يمضي طوال اليوم معهم. هكذا يحقّق بعض الناس أحلامهم، لذا؛ يمكنني أن أصبح كاتبًا أيضًا.. اعتنى الخال مارين بالطيور المريضة التي وجدها. شرَّح أجساد الطيور الميتة. كان يجد أحيانًا أكثر من ٢٠٠ طائر بجع ميت.

"لا يوجد طائر آخر لأحشائه رائحة كريهة مثل رائحة البجع. رائحة كريهة رهيبة!"

أتعجّب كيف يمكن أن تكون لهذا الطائر الجميل رائحة كهذه..

سألتْ سيلڤيا: "وما سبب موتهم؟"

قال الخال مارين: "حوادث، تحدث عادة للطيور الصغير وعديمة الخبرة. تصطدم بأعمدة الكهرباء. في وقت متأخّر من الليل، أو باكرًا في

الصَّباح. يرونها بعد فوات الأوان، يفردون أجنحتهم، فينشأ تيار كهربائي إمّا يقتلهم على الفور، أو يجرحهم ثمّ يموتون لاحقًا..".

أحزنني أن أتخيّل البجعات الميتة. الطريق بطوله مغطّى بأجسادها البيضاء.

"ترتطم الطيور بزجاج المباني والنوافذ على الهياكل الطويلة. لا يمكنها أن ترى الزجاج. لا تدرك وجوده، وترتطم به. وهناك طرق أخرى تحدث. ليس منذ زمن طويل تعثَّرتُ بعصفوري دوري كانا فاقدي الوعي تقريبًا بعد الارتطام بزجاج موقف حافلة... هناك على الأقلّ من ثلاث إلى أربع حالات مثل هذه يوميًا. المشكلة هي أنه لا يوجد ملصقات أو إعلانات على الزجاج؛ لتنبه الطيور إلى وجود عائق... بدأنا نحن البشر نقرّر سلفًا مصير مخلوقات بأكملها... عنفات الرياح هي الأسوأ. تأسّست طُرُق هجرة الطيور منذ عدّة سنوات، وتناقلتها أجيال الطيور. تطير الطيور دومًا في الطريق والارتفاع نفسيهما. كما يحدث في إفريقيا؛ حيث تعبر الظباء وحيوانات النَّو النهر المزدحم بالتماسيح... الأمر نفسه مع الطيور، لا تحيد عن طريقها. عندما وُضعت عنفات الرياح في طريقها حدثت مذبحة".

بينما كان الخال مارين يتحدّث، غادرنا البلدة، وسلكنا طريقًا قذرًا. توقّفنا بجوار حقل قمح. خرجنا. مددتُ يدي لسيلڤيا، وتمسّكتْ بها جيدًا.

وصفتُ ما رأيتُه لسيلڤيا: "بحر ذهبي من القمح، مثل النهر الذهبي في حكايات الجنّ".

ارتسمت على وجهها ابتسامة حالمة. "هلَّا التقطت لي صورة في البحر الذهبي؟" من حسن الحظّ أن خالي كان يحمل معه آلة تصوير. التقطتُ صورة لسيلڤيا في حقل القمح. أضاء أشعّة الشمس والقمح الذهبي وجهها

الجادّ. بدا فستانها الأزرق الفاتح بزهوره البنية الصغيرة كمركب شراعي. فكّرتُ أن سيلڤيا كانت أجمل فتاة رأيتُها في حياتي. كانت الصورة عظيمة.

عندما اقتربتُ منها؛ لأقدِّم لها يدي، مرّرتْ أصابعها على وجهي مثلما فعلتْ أوّل مرّة، عثرتْ على شفتَيّ، وقبّلتني. حدث هذا كله في لحظات. توقّف الزمن في تلك اللحظات. لم أتحرّك. كما لو أن ساقي اتّحدتا بالأرض. رفعتُ يدي، ولاطفتُ شعر سيلڤيا الأشقر الذي لمع في الشَّمس أكثر، وبدا أنه مصنوع من القمح. أمسكتْ سيلڤيا بيدي، وعدنا إلى السيارة. لا أزال أستطيع أن أشعر بلمسة شفتيها.

تحقّقتُ من مارين وخالي، لكنْ؛ لحسن الحظّ بدا كما لو أنهما لم يريا شيئًا. قالا لنا إنه ليس من الممكن أن ندخل عبر الشجيرات.

رجعنا إلى الطريق، وواصلنا. ثمّ انعطفت الجيب ثانية، ودخلت بين القصب. قدنا مباشرة عبر قصب بطول مترين، طريق جانبي تمامًا! كان ظريفًا جدًا! كان يوجد أمامنا جدار من القصب انفتح؛ ليسمح لنا بالمرور. اندفع محتدمًا عبر النوافذ المفتوحة، قبل أن نتجاوزه، ونخلّفه وراءنا؛ ليتمكّن من الإغلاق ثانية. كان هذا مثل حكاية أيضًا. الغابة الكثيفة التي تُفتَح وتُغلَق خلف البطل.

والآن كنتُ البطل، والأميرة كانت جالسة بالقرب مني تصرخ بهياج. لم يسبق أن رأيتُ سيلڤيا في مثل هذه السَّعادة يومًا، وكانت سعادتها تدوخني أيضًا، وأردتُ أن أصرخ وأقفز نحو السماء بفرح. بينما كنا نعبر بين القصب، رأيتُ جندبًا ضخمًا على زجاج السيارة الأمامي. نظر نحوي بعينيه السوداوين الشبيهتين بكرتين. مباشرة نحوي. بينما كنا ننظر إلى

بعضنا، حدث شيء رائع، أعرف أنه لا يمكن أن يكون صحيحًا، لكنه حدث. بدأ الجندب يتحدّث إليَّ! نعم!

"إذنْ؛ ماذا ستفعل مارتي؟ مع هاتين الفتاتين؟ أنت في ورطة مثل والدك..."

نظرتُ من حولي مشدوهاً، لأرى إذا كان قد سمعه أحد سواي. لكن جميع رفاقي كانوا منشغلين بأمورهم. كان الخال مارين يقود، وخالي يلتقط الصور، وسيلڤيا كانت تمسك يدي بشدّة. ظلَّ الجندب يحدّق بي.

"نعم، الآن أنت تفهم. لا تحاول أن تشيح بصرك".

"ماذا يتعيّن عليَّ أن أفعل؟ ماذا عليَّ أن أفعل؟"

غريب. لم أكد أفكّر بجوابي. ودون أن أقوله، الجندب "سمعني".

"ماذا تعني بماذا؟ لا تتصرّف كما لو أن شيئًا لم يحدث. أنت وسيلڤيا تبادلتما القبل للتوّ. رأيتُ. وأليكس تنتظرك في صوفيا".

"ماذا في وسعي أن أفعل، أنا أحبّهما كلاهما. لم أرد أن يحدث بهذا الشكل..."

"لم تُردْه، ها؟ وأنت غاضب من والدك؟ هل تظنّ بأنه أراده؟"

"حسنًا، الأمر مختلف مع والدي. هو كبير، وهو والدي، و.. هو متزوّج من أمّي. ولديه طفل، أنا!"

"وماذا يعني؟ أنت تظن أنه عندما تتزوّج ويكون لديك طفل ستشعر بأيّ فرق؟"

"لا أعرف".

"بالضبط، لا تعرف".

"ماذا تعرف؟ أنتَ لستَ إنسانًا حتّى!"

"أعرف، أعرف.. كنتُ هناك منذ عدّة سنوات. كم من الناس رأيتُ مع قصصهم.."

"وماذا لو رأيتَهم؟ ماذا فهمتَ منهم؟ ماذا كنتَ ستفعل لو كنتَ مكاني؟"

"أعرف أن الكذبة تؤلم كثيرًا. البقية يمكن ابتلاعها بطريقة ما. لكنْ؛ لا أعرف ماذا كنتُ سأفعل لو كنتُ مكانك. ليس لأني لستُ إنسانًا، لكنْ؛ لأني لستُ أنت. وعليك أن تنظر في داخلك، تسمع صوتك الداخلي. فهو يعرف أكثر".

"لكنْ..."

لكنْ؛ قبل أن أواصل، اختفى الجندب عن الحاجب الزجاجي. إمّا أنه حسب أن "محادثتنا" انتهت، وقفز، أو أن القصب الغاضب جرفه بعيدًا -لم أعرف.

توقَّفت سيارة الجيب ثانية. كنَّا على درب معشوشب، والبحيرة على جانبه. لكنها كانت بحيرة مختلفة، ليست البحيرة التي ذهبنا إليها المرّة الماضية. تُسمّى أتاناسوفسكو. ترجَّلنا.

قال الخال: "ها هم"، وأشار بيده.

كانت طيور البجع هناك! كثير منهم ثانية. ربمّا مئات. وكنا قريبين منها

أكثر من السَّابق. كانت تعوم في البحيرة. كانت بعضها تصيد السمك، وأخريات تحلِّقن فوق المياه.

انقطعت أنفاسي من السَّعادة والانفعال. بل أكثر من ذلك لأن سيلڤيا كانت تمسك بيدي. وصفتُ لها كل شيء-البجع والبحيرة والسَّمك.. أعطاني الخال مارين منظارًا؛ كي أرى بشكل أفضل. رأيتُ الآن بوضوح شديد. أصغت سيلڤيا بهدوء، ووجهها مرفوع نحو السماء. أردتُ حقًا أن أقبّلها ثانية. نظرنا إلى البجع طويلًا، إلى أن بدأت تحلّق، وتُقلع بالاتجاه المعاكس.

شرح الخال مارين: "إنها ذاهبة إلى بحيرة فايا، تمضي الليل هنا، لكنها تتغذّى في بحيرة فايا. لديها برنامج".

تبيّن أن البجع طيور ذكية!

وتمامًا عندما كنَّا نستعدّ للعودة إلى الجيب، انفصل طائر بجع عن السَّرب، وحلَّق نحونا. جاء فوق رؤوسنا مباشرة، كما لو أنه أراد أن يُسلِّم علينا. حام حولنا، وحلّق عائدًا.

قفزنا في الجيب، وعدنا. أخذنا الخال مارين إلى موقع مراقبة؛ حيث رأينا طيوراً أخرى. أرانا مرجًا سوف يقيم عليه الأسبوع القادم مخيّمًا تطوّعيًا للناس الذين سيساعدونه في العمل وتنظيف المكان حول البحيرة. كانوا سيخيّمون هناك، ويوقدون نارًا.

قلتُ لسيلڤيا: "ذات يوم، عندما نكبر، سنأتي؛ لنخيّم هنا أيضًا". عصرتْ يدي بقوّة أكبر.

عدنا حوالي الظهر. وللمرّة الأولى هذا الصيف، لم نذهب إلى بحيرة المياه المالحة والطين.

-٤٧-

كانت من أفضل اللحظات في اليوم عندما نزيل الطِّين عن أجسادنا. تغسله المياه التي سخَّنتْها الشَّمس، ويبدأ بالانزلاق، ويسيل من حولنا مثل غيمة داكنة. تطلب سيلڤيا مني مساعدتها، وأنا أغرف الماء، وأرشُّه على وجهها. ثمّ أجمع بقايا الطين بيدي. أزيله عن عنقها وكتفيها. وتشعُّ بشرتها المسفوعة بالشمس مثل الحرير. جلدها ناعم جدًا وصقيل، ومَلمسه لطيف جدًا. في أثناء ذلك، أكون شديد الإمعان، وأستغرق وقتًا أطول عن قصد. تنتظرني سيلڤيا بصبر جدِّيّ، وتشكرني في النهاية.

في اليوم التالي لرحلة الصيد، بعد أن اغتسلنا، طلبتُ منها أن تصفَ لي كيف يكون فقد البصر.

قالت سيلڤيا: "يمكنني أن أرى، لكنْ؛ بطريقة مختلفة. ليس أشكالًا وألوان. هناك كثير من الأصوات هنا وهناك، تقول لي الكثير. أرى الأطفال يلعبون في الماء بالكرة. لا يمكنني تخيُّل الكرة، لكني أعرف كيف تبدو أصواتها. وكيف تطرطش في الماء. شكل مختلف عن الذي يصدر عندما تمسّ أيدي الأطفال. أرى أن أمّهاتنا تخلفتا، لأني لا أستطيع سماع خطواتهما".

ثمّ قلتُ مندفعًا دون سابق إنذار:

"هناك فتاة في صوفيا، أليكس.. نجلس قرب بعضنا البعض في المدرسة".

هذا كل ما تمكّنتُ من قوله.

لم تقل سيلڤيا شيئًا.

لكنْ؛ للمرّة الأولى، بدأت شفتاها ترتجفان، وتدحرجت دمعتان من تحت نظّارتها. لم أعرف ماذا أفعل. لم يسبق أن حدث لي هذا النوع من الأمور. ربمّا لو كان والدي هنا، لقدَّم لي النصح. لكنه لم يكن.

قلتُ: "أحبّكِ كثيرًا".

لكن سيلڤيا ظلَّت هادئة، ومشت دون أن تترك يدي، والدموع وصلت إلى ذقنها، ونزلت إلى عنقها.

- ٤٨ -

لم تأتِ سيلڤيا ووالدتها إلى الشَّاطئ في اليوم التالي. لم يكن تأمّلي يسير على نحو جيد. بقيتُ أفكّر بأني قد لا أراها ثانية، وتلك الفكرة جعلت نبض قلبي يتسارع. وثبتَ أن مخاوفي مُحقّة - عندما ذهبنا إلى بركة المياه المالحة، ولم تكونا هناك. اتّصلتْ أمّي بوالدة سيلڤيا، هزَّت رأسها بتعبير قلق، وتمنَّت شفاء عاجلًا، ثمّ قالت لنا إنَّ سيلڤيا مريضة.

سألتُ: "هل يمكننا الذهاب لرؤيتها؟"

قالت أمّي إنه ليس مناسبًا.

لم أشعر بهذا الشعور منذ أن غادرنا أبي. غير أنه الآن كان مختلفًا قليلًا. الآن بدا أن سيلڤيا تركتْني، وذلك جعلني أحسُّ بشعور مختلف.

عندما غادرنا والدي، كنَّا كلانا مع أمّي. لكنْ؛ الآن كنتُ وحيدًا تمامًا. طوال الوقت في بركة المياه المالحة، الطين، وفي طريق عودتنا كنتُ صامتًا.

سألتْ جدّتي: "مارتي، ما خطبكَ؟ تبدو حزينًا".

أجبتُ: "لا شيء".

خرجنا تلك الليلة مع الخالة روميانا وأليكسندر ثانية.

قال: "سيلڤيا ظريفة، هل حدث بينكما أي شيء؟"

"أظنّ ذلك. لكني أخبرتُها عن أليكس".

"هيا، أخي، كيف أمكنك أن تفعل مثل هذا الأمر؟ فتاة مسكينة! اعتقدت بأنها أعجبتكَ!"

"لا أزال معجباً بها".

"إذنْ؛ لماذا أخبرتَها عن أليكس؟"

"حسنًا، لهذا السبب بالضبط".

لم أفهم لماذا لم يدرك. بدا الأمر شديد الوضوح بالنسبة لي.

ثمّ رأيتُ وجهًا مألوفًا جدًا، وشعرًا أشقر مُرخىً من حوله. كانت العينان مخفيتين خلف نظّارة سوداء، وهو ما أربكني لوهلة، لكنْ؛ حينها أضاءت إشارة حمراء ساطعة في رأسي: "مونيكا". كنتُ ربمّا سأصرخ باسمها، لولا أن حلقي جفَّ فجأة. لم ترني، وظلّت مستمرّة في سيرها. توقّفتُ، والتفتُّ نحوها. أمّي التي كانت خلفنا مع والدة أليكسندر رأتْها أيضًا. عرفتُ من تطاول وجهها. أبطأتْ مونيكا، لكن أمّي واصلت السير، ومرَّت بها.

قال أليكسندر: "فتاة ظريفة بالتأكيد، لكنْ؛ لنمض".

بأيّ حال، لم أتحرّك، وانتظرتُ أن تلحق والدتانا بنا.

كنتُ أنظر إلى وجه أمّي، كان جامدًا. كانت الخالة روميانا تقول لها شيئًا، لكنها بدت أنها لا تسمع، وكانت تحدّق مباشرة أمامها. عندما لحقتا بنا، قالت: "مارتي، نحن سنعود إلى البيت، أنا لستُ على ما يرام".

ثمّ نظرتْ إلى روميانا، وقالت: "آسفة رومي، سأتصل بك".

أنا بالفعل اختلقتُ الأمر برمّته. كان يمكن أن يكون لطيفًا حقًا لو حدث بتلك الطريقة. لكنْ؛ في الواقع، حدث شيء آخر تماماً. رأيتُ مونيكا حقًا، أردتُ أن أنادي باسمها، لكني لم أتمكّن بسبب جفاف حلقي. رأتني أيضًا، توقّفتْ، وقالت: "مرحبا، مارتي". كنتُ صامتًا. "لا أريد أن تكون غاضبًا مني".

استمرّ صمتي. لا لأني كنتُ منزعجًا منها في تلك اللحظة، فقط لم أعرف ماذا أقول. مدَّت يدها، ولاطفت شعري كعادتها. توقّف أليكسندر على بُعْد خطوة مني، وكان ينظر إليها. شعرتُ كما لو أن وقتًا طويلًا مرَّ. لاحظتُ أنها ترتدي فستانًا بنفسجيًا قصيرًا. لم تكن ياقته عالية جدًا. ثمّ لحقتْ والدتانا بنا. اكتشفتُ ذلك عندما نظرتُ إلى وجه مونيكا الذي أصبح قرمزيًا. ووجه أمّي المستاء، كما لم يسبق أن رأيتُه بهذا الشكل. وكانت عيناها مختلفتين، ثابتيين على مونيكا، وللحظة ظننتُ أنها سوف تُطلق عليها النار بعينيها. أسبلت مونيكا عينيها، وتراجعت، وحينها رفعت أمّي يدها، وصفعتها على خدِّها بقوّة. اهتزَّ رأس مونيكا جانبًا. رفعت يدها أيضًا، ومسَّت خدّها. ارتعشت شفتا مونيكا، ونزلت الدموع على خدَّيها. رأيتُها تبكي للمرّة الأولى، وكان قلبي كما لو أنه ينفجر مثل الألعاب النارية في عيد الميلاد إلى ألف نجمة صغيرة. أردتُ أن أعانقها، وأواسيها، أن أحميها من الرَّعد في عيني أمّي. أن أقفز نحو أمّي، وأصرخ، لأسألها كيف يمكنها أن تكون شديدة الوضاعة، أن أقول لها إني لا أريد أمًا هكذا، وإني سأذهب لأعيش مع مونيكا وأبي... لكن أمّي كانت تحدِّق مباشرة أمامها.

ربتت على كتفي، واكتفت بالقول: "مارتي، نحن عائدان إلى البيت".

سحبتُ كتفي، ومشيتُ قَدَمًا. ثمّ التفتُّ، ورأيتُ مونيكا لا تزال واقفة

في وسط الشارع، وفعلتُ شيئًا لم أكن أتوقّعه من نفسي. هرعتُ نحوها، عانقتُها، وقبّلتُها على خدِّها. وعدتُ إلى أمّي. كل هذا حدث أمام الخالة روميانا وأليكسندر. بديا كما لو أنهما لا يعرفان ماذا يقولان. نظرت أمّي إلى الخالة روميانا.

" أنا آسفة رومي، سأتّصل بك".

استقلّينا سيارة أجرة بالفعل. عنى هذا أن الأمور كانت جدّيّة حقًا. في السيارة، ارتعشت شفتا أمّي، ووجهها كان مبللًا بالدموع. عرفتُ ذلك التعبير من الحقبة الذي كانت تبكي فيها دومًا. كان كما لو أنها لم تعد أمّي بعد الآن، كما لو أن كائنًا آخر تملّكها. دفعتْ للسائق، سحبتْني من ذراعي، ودخلنا بسرعة إلى المبنى. في الشّقة، مرّت بجدّتي، اندفعتْ بقوّة إلى غرفة نومها، وصفقت الباب خلفها. حاولت جدّتي الدخول، لكنه كان مقفلًا، بدأت تضربه:

"لينا، افتحي! ماذا حدث لينا؟ أرجوك! لينا!"

لكن أمّي لم تفتح.

لم نسمع سوى صوت نشيجها.

التفتت جدّتي إليّ.

"ماذا حدث؟"

همست: "رأينا مونيكا".

"أوه، يا إلهي. هي لم تكد تبدأ بالتحسّن! من أين أتتْ، تلك؟!..."

ثمّ عادت إلى الباب.

"لينا، من فضلك، افتحي. لن تعودي إلى حيث كنتِ بسبب تلك المومس. لن أسمح بذلك! هل تسمعينني، لينا؟"

لكن أمّي لم تجب. واستمرَّ النحيب.

ذهبتُ إلى غرفتي، وبدأتُ أكتب يومياتي. بتلك الطريقة لن أشعر برغبة بالبكاء كثيرًا. ذُرف ما يكفي من الدموع اليوم.

مونيكا

لا يعجبني الدَّور الذي أُعطيَ لي هنا، دور المغوية الوضيعة، على الإطلاق. إنها صورة نمطية مبسَّطة. أرفض وضعي في هذه الصورة الأحادية البُعْد، كما لو أني شخصية من فيلم رسوم متحرّكة على لصاقة. كل المغويات متشابهات، لكنْ؛ لكل واحدة منهنَّ شخصيّتها... قصّتها الشَّخصية، ألا تظنّين؟

وماذا لو أن تلك المغوية كانت طفلة قلقة، ثمّ فتاة قلقة، وأخيرًا امرأة قلقة، تحتاج دومًا؛ لتُثبت لنفسها بأنها مرغوبة ومثار للإعجاب وأثيرة؟ هذه هي الكليشيه الأثيرة عندي!

لا أدَّعي أني أكثر النساء مناعةً في العالم. لديّ مخاوفي أيضًا. لينا! لطالما اعتبرتك الأذكى، الأكثر نباهة، الأكثر تحمّلًا للمسؤولية. وكنتِ طالبة متفوّقة... ورئيسة الصَّفّ. احترمك الأولاد، والفتيات أيضًا. قُبلت للدِّراسة في صوفيا. ثم حصلتِ على عمل جيد... ورجل جيد... باختصار، كل الشروط البخسة موجودة لإحياء كليشيه الغافلة القلقة وصديقتها الأكثر ذكاءً منها. إلا واحدة. أنا لم أهتمّ يومًا. حقًا. ولا أزال.. صورتك هذه لم تجذبني يومًا.

أحببتُ ما أنا عليه. هل تفهمين؟ أحببتُه. أن يتحسّسني الفتيان في

الرواق في أثناء الفرص في المدرسة، فيمكنك بذلك أن "تُنقذيني"، حتّى لو أن الحقيقة كانت أني مَنحتُ نفسي لهم، طوعًا وباستمتاع. وهم شعروا بذلك. الرجال دومًا يشعرون...

مخبر الكيمياء.. تتذكّرين، صحيح؟ كنتُ وحيدة هناك، وذلك الفتى من الصَّفّ التاسع دخل مندفعًا. وبلمح البصر، وجدنا نفسينا في حجرة المدّرّس... عرفتُ أن ذلك لم يكن لائقًا، لكن شيئًا في داخلي كان يُغيّب عقلي. كنتُ مستمتعة به، كان ما يفعله ممتعًا حقًا. حتّى عندما رأيتكِ، كل ما أردتُه كان أن تخرجي، فلا تنتهي المتعة التي كنتُ أشعر بها. لحسن الحظّ، هربتِ، والجنون كان مذهلاً...بعد بضعة أيّام، انتظرني بعد المدرسة، وأخذني إلى منزله... ومن هناك، بدأ رجل بعد آخر. البحّارة الأميركيين في الصيف، بأذرعهم القوية. الانغماس السَّريع في العلاقات العابرة. يمكنك أن تحكمي عليَّ قدر ما تريدين، لكنْ؛ من دوني، كنتِ لا تزالين عذراء. كنتِ تخرجين مع آسن منذ سنة، وماذا؟ كنتِ ستواصلين الخروج معه. هذا ما كان يقودني إلى الجنون بشأن الناس. عندما تخدمين حاجاتهم، يسعدون جدًا بكِ، ويشكرونك أيضًا، لكنْ؛ بخلاف ذلك فقط يبصقون عليك... حسنًا، لكن المرأة التي ساعدتكِ في حبّك الأول، والتي أخذت رجلك هي ذاتها.

هذا هو! هذا ماهي عليه الأمور! لدينا حزمة متكاملة بكل حسناتها وسيئاتها. لا يمكنني أن أعتذر عمّا أنا عليه. ولا، لا أشعر بالذنب. ليس خطئي أن أحدًا رغب بي، وأني وافقتُ. يشهد علي الله بأني لم أفعل شيئًا. لم أقم بالخطوة الأولى. لا مع آسن ولا مع إيڤان. هما رغبا بي. كان في وسعي أن أرفضهما، نعم. نعم، كان عليّ... لكنْ؛ لماذا عليَّ أن أرغم نفسي عندما أُعجبت بهما أيضًا؟ إن لم أقبل، شخص آخر سيفعل. ماذا؟

يمكن أن يكون شخصًا آخر، لكنْ؛ ليس أنا؟ لماذا؟ أيّ نوع من التفكير السخيف هذا؟ لا يمكنني تفهّمه. عندما يصل الأمر إلى ذلك، أنا لستُ امرأة، ولن أكون يومًا. هذا المنطق الأنثوي غريب عليّ، لا يمكنني أن أستوعبه، وهذا هو!

إذا رغب زوجكِ بامرأة أخرى، يا عزيزتي لينا، فليستْ هي السبب. اكتبيه في مكان ما بأحرف كبيرة، بالأحمر إذا أمكن. فلن يحدث لك ثانية غدًا. إن كانت الأمور بينك وبين رجلك تجري كما يجب، ما من امرأة يمكنها أن تحول بينكما، حتّى لو انتظرتْهُ عارية في السرير. هل هذا واضح؟ هل فهمتِ؟ أنا سئمتُ منكِ؛ لأنه رغم كل شيء، لا أزال أهتمّ، وأريدك أن تكوني سعيدة. لكن رجلكِ هذا لم يكن رجلكِ يومًا. منذ وقت طويل أصبح وحده، منفصلًا، منغلقًا. وأنت الملامة، يا صديقتي العزيزة، بمشاكل عملك المملّة، التَّعب، وثيابك بنية اللون. منذ متى مارست الحبّ مع ذلك الرجل؟ وأنا لا أتحدّث عن إشباع واجباتك الزوجية، لكنْ؛ عن ممارسة حبّ حقيقية، النوع الذي يهزّك، ويجعلكِ تبتسمين دونما سبب في اليوم التالي؟

إذا كنتُ سأحكم من مدى تعطّشه إلى لمسةٍ مُحبّة، لا بد أن سنوات قد مرَّت. هذا أكبر خطأ ترتكبه النساء المتزوّجات، ودراماهنَّ اللانهائية. يدخلون في علاقات وهنَّ جذَّابات، ويتحوّلنَّ خلال بضع سنوات، مثل تعويذة شرّيرة، إلى قذارات. أميرات تصبحنَ ضفادع حالما يقبلُهنَّ أميرهن عند المذبح.

الحقيقة الحزينة، يا سيداتي العزيزات، هي أنه بينما تقمنَ بجلي الأطباق، وتضعن الأطفال في السرير، يمارس أزواجكنّ العادة السّرّيّة في غرفة النوم، ويتخيّلون شبيهات بي. إلى أن يلتقوا بواحدة منا، ويتوقّفون عن الاستمناء.

أعرف أن زواجي أخفق أيضًا، لكنْ؛ ليس بسببي. تبيّن أن آسن ضعيف الإرادة، وليس لديه أي طموح، وغير قادر على إشباع رغباتي. حتّى في السَّرير. وعند حدّ معيّن تحوّل اتّحادنا المقدّس إلى قفص، كان يعني موتي، لو لم أرحل. فقط قليلًا في البداية... لكنْ؛ عندما وصلتْه الشائعات، كان الباب مفتوحًا. لم يستطع تباهيه الذّكُوري مواجهة الأمر.

هل تريدين أن تعرفي كيف حدث، لينا؟ أنا واثقة أن خيالك يجرّب كل أنواع السيناريوهات. لكن الحقيقة هي، أن إيڤان شعر بالدهشة لحظة رآني. أحسستُ بالاتجاه الذي ستنحو نحوه الأمور. وكنتُ مستعدّة إلى حدّ ما؛ كي أدير ظهري، وأغادر في الحال، لكني لم أتمكّن من فعل ذلك. لم يكن هناك طريق للتراجع. تفاديتُه قدر المستطاع، لكنْ؛ لم يكن ممكنًا حقًا تحت سقف واحد... علاوة على أني أحببتُ قوّته الذُّكُورية، القسوة التي شعَّت منه، ثقته، كل خصاله التي لم يمتلكها آسن. تفاديتُ عينيه، لكنها مرَّت على وجهي وجسدي كثيرًا، وباستمرار، سرت تلك الأمواج الحارّة عبري.

إنه المساء. أربعتُنا في البيت. أدخل إلى المطبخ، وأضع قليلًا من الماء على الغاز؛ كي أصنع الشَّاي. أقف وظهري إلى الباب، أنتظر غليان الماء. أسمع شخصًا يدخل، لكني لا ألتفت. يدان قويتان تبدأن بتمسيد عنقي وكتفي. تخور ركبتاي، وأنحني نحو الغاز. تجتاح السخونة أصابعي، يغلي جسدي. يداه تنزلقان على ظهري، ثمّ تتقدّمان، وتُمسكان بنهديّ. أعض على شفتيّ. لم يمسّني أحد منذ أشهر. ثمّ أتوتّر. أنت أو مارتي يمكن أن تدخلا في أي وقت. استقمتُ. تراجع. التفتُّ، ونظرتُ في عينيه. حدّقنا بصمت لبرهة، خرجتُ من المطبخ، وعدتُ إليك.

"أين الشاي؟ ألم تذهبي من أجلها؟"

"يا إلهي! أنا ذاهلة تماماً!"، أشعر أن وجهي يحمرّ خجلاً، جاء في اليوم التالي إلى البيت ظهرًا. وكنتُ وحيدة. لم يقل شيئًا، ولا حتّى مرحبًا. أخذني. ومنحتُ نفسي.

إغراء شديد.

لأكون صادقة لينا، لا أعرف إذا كان حبًا. لكني أشعر بأني على ما يرام معه. هو يمنحني شعورًا بالاستقرار، لم يقدّمه أيُّ شخص أخر. أنت، من ناحية أخرى، كنتِ دومًا تخنقينه. يحتاج ذَكَر مسيطر مثله إلى امرأة مثلي. امرأة تعرف كيف تمتلكه... بالحنان. كما لو أنها تطاوعه، لكنْ... وأنت لم تتمكّني من فعل ذلك، رأيتُ ذلك. لهذا أنا مقتنعة بأن الانفصال هو فرصتكِ أيضًا. أنت فقط لا تفهمين. لقد صفعتني. أصابعك الساخنة تركتْ أثرًا على قلبي. كما لو أنك ضربتِهِ، وليس أنا... لينا، لينا...

-٤٩-

كان هناك قُرع الباب، ودخلت جدّتي.

"ماذا تفعل، مارتي؟"

"أكتب".

"ماذا تكتب؟"

"أشياء".

"أمّك سوف تتحسّن. لا يمكن أن تبكي إلى الأبد. وتذكّر أنها تحبّك كثيرًا".

لم أقل شيئًا.

ولكي يزداد الأمر سوءًا، بدأت الدموع تجري على خدّي. ولاحظت جدّتي.

عانقتني، وربتت على رأسي. كان الجميع يلاطفني اليوم ما عدا أمّي، لكن ملاطفة مونيكا ربمّا كانت اعتذارًا، وجدّتي تهدئةً. هناك أنواع مختلفة من الملاطفة، هذا ما تعلّمتُه اليوم.

"نعم، يا فتاي. أمّك تحبّك كثيرًا جدًا. أنا أحبّك كثيرًا أيضًا. ووالدك كذلك، رغم ما فعله".

أبكتْني كلمات جدّتي بشدّة أكبر. ظلّت تلاطفني، إلى أن استرخيتُ، وشعرتُ بالنعاس.

-٥٠-

أوقظني صوت أمّي وجدّتي. كان أعلى من المعتاد. سمعتُهما من وراء الباب المغلق. بدا كما لو أنهما تتشاجران. كان الظلام قد هبط في الخارج، فلم يكن الليل قد انتهى بعد. اقتربتُ من الباب، وفتحتُه قليلاً. كانت الأصوات قادمة من غرفة الجلوس. بدأتُ أصغي.

"لماذا لا تتركيني وشأني؟ بماذا أزعجكِ؟ نعم، أنا أمرُّ بفترة عصيبة، لكن هذا طبيعي.. انهارت حياتي خلال أيّام. ماذا تتوقّعين؟ أن أرقص حول قبرها؟"

تلك كانت أمّي.

"لا أحد يريد منكِ أن ترقصي، لينا"، بدا صوت جدّتي مثل صوت شخص راشد، يحاول أن يخفّف ألم طفل. "لكنْ؛ على الأقل، استجمعي قواك. مرَّ شهران حتّى الآن. لم يحدث الأمر البارحة. الزمن كفيل به. لا يمكنك أن تعودي إلى خطّ البداية بسبب كل أمر تافه".

"لا يمكنني؟ مَن يقول إنه لا يمكنني؟ وأن تري الإنسانة التي دخلت، اعذريني، التي سمحتُ لها بالدخول إلى منزلي؛ لتتمكن من أن تسرق رجلي، ليس أمرًا صغيرًا! من الطبيعي أن يهزّني. هل تفهمين؟ طبيعي! ردود أفعالك هي التي ليست طبيعية. أن تطلبي الكثير. ما تنتظرينه مني كثير جداً! ومن أخي أيضًا! لسنا بشراً خارقين! لا يمكننا أن نكون مثلك،

ولا أريد أيضًا أن أكون مثلك! هذه هي الحقيقة المحزنة، وحان الوقت لتفهمي، وتقبليها!"

"ماذا تقولين، لينا؟! لستِ صاحبة الشأن على الإطلاق..."

"بالتأكيد أنت السبب! حاجتك لأن تكوني المخلِّصة الأبدية.. عندما، إذا لم يكن الآن، قد تواتيكِ الفرصة؛ لتلعبي دور الأم المثالية التي تجرّ ابنتها المنهكة وذرّيّتها البائسة من الطِّين؟ ألم تكن مهمّة محاولة إنقاذ أبي كافية بالنسبة لك؟ ألم تطل مع ذلك؟ جررته حول البلاد بكاملها، إلى كل أنواع المعالجين والمشعوذين، بدلًا من أن تدعيه يموت بسلام ... أنا لستُ أبي وحسب. لديَّ الحقّ بالمرور بأوقات صعبة، وأن أخوض ألمي، لماذا لا تدعيني وشأني؟"

عند هذا الحدّ، بدأت أمّي تبكي. كانت تبكي، وهي تتكلّم. ثمّ هدأت. وتحدّثت جدّتي بصوت حازم للغاية، بطريقة لم يسبق أن سمعتُها منها من قبل.

"اسمعي، يا ابنتي.. لو لم أكن أعرف أنك تمرِّين بأزمة، لكنتُ أمسكتُكِ، وصفعتُكِ بسبب هذه الكلمات. كيف تجرئين على التحدّث عن أبيك بهذه الطريقة؟! أنا وحدي أعرف الأمور التي مررتُ بها معه. إيّاك تنجيس ذلك بفمك الوقح! لكنْ؛ حتّى ذلك لا يهمّ الآن. أنت تظنين بأن لديك الحقُّ بمعاناتك؟ هل سبق أن فكّرتِ يومًا بأن لديّ الحق أيضًا، طوال كل هذه السنين؟ بأي حال، يا عزيزتي، نملك ذلك الحق فقط، لو كنا بمفردنا في العالم ومسؤولين فقط عن أنفسنا في هذا العالم. هل هذا واضح؟ لكنْ؛ عندما يكون لدينا أطفال، لا نملك الحقّ بالمعاناة! نحن أمّهات، لسنا شهيدات! بالتأكيد ليس لدينا حقّ بتسليم أنفسنا للوعة والألم وغيرها

من الهراء. لأن ذلك الطفل في الغرفة الأخرى يحتاجك الآن. مَن سوف يساعده، إن لم تفعلي أنت؟ إذا كنتِ لا تستطيعين التَّقدّم وابتلاع ألمك، لم يكن عليك أن تصيري أمًا!"

حالما قالت ذلك، غادرت جدّتي الغرفة. سمعتُ وقع خطواتها تقترب. عدتُ سريعًا إلى السرير، وسحبتُ الغطاء على رأسي. أردتُ أن أغرق في النوم، وألا أتذكّر شيئًا ممّا سمعتُ عندما أستيقظ، وألا يكون شيئًا سوى حلم سيء آخر.

الجدّة زدرافكا

أنا الآن جدَّة، صحيح، لكنْ؛ كنتُ أمًا قبل أن أصبح جدَّة. وقبل أن أصبح أمًا كنتُ امرأة. وفتاة قبل ذلك. وإذا لم تتعلّم تلك الفتاة أن تصرَّ أسنانها، وتقاتل من أجل أمورها، لم تكن لتوجد لا المرأة ولا الأم ولا الجدَّة. لأنها ذات يوم كانت ستذهب إلى البحر، ولن تعود أبدًا. هل هذا واضح، يا ابنتي؟ أن أمّك تعرف كيف تشعرين تماماً؟ وهذا بالضبط؛ لأني أصرّ أسناني ثانية، وأتحمّل مسؤولية حياتي بسببك وبسبب مارتن. وأنا أضع برامج صحّيّة وأيًا يكن من هراء فقط؛ لأدفعك قليلًا إلى الأمام، وأدفع نفسي معكما، فلا تستكيني لهذه الحياة عديمة الرحمة التي تفترس الضعيف.

وليس لهذا السَّبب فقط. لكنْ؛ لأنه عندما كنتُ أتساقط في الهاوية، لم يكن هناك أحد يمدُّ لي يده. وكان عليَّ أن أخرج بنفسي. كل مرّة، مرارًا وتكرارًا. هل تعلمين كيف يكون الحال عندما تكونين يتيمة الأمّ؟ هل حاولتِ مرّة تخيُّل كيف يكون الحال عندما تفتقدين أكثر العلاقات دفئاً في حياتك؟ كل أمّ، حتّى الأسوأ من بينهنّ، أفضل من غيابها. وألا يكون لديك أب؟ أن تكوني أنت حضن ذاتك وحبّها وحمايتها وسندها؟ وألا يكون لديك بيت؟ غرفة؟ خصوصية؟ زاويتك الخاصة؟ أن تتشاركي كل شيء مع

الناس الذين وضعهم حظٌ سيئ معك، وحكم عليهم بأن يكونوا عائلتك، أن تنظري بأمل إلى كل امرأة جديدة تأتي، تحاولي أن تجدي شيئًا مألوفًا في ملامحها، شبهًا، لكنْ؛ لا، لا شيء، ما من شبه. وعندما قرّرتُ في هذه الحياة أني بلا أمّ ولا أب، أصبحتْ حياتي محتملة أكثر.

وهكذا، يا ابنتي العزيزة. ليس سهلًا، لكنْ؛ نحن لسنا هنا؛ لنحصل عليه بسهولة، من واجبنا أن نجد حتّى في الأوقات العصيبة السُّلَّم في أنفسنا، ونصعده نحو أفق أيامنا، لا سيما عندما يكون هناك كائن يعتمد علينا كُلّيًا، لا سيما عندما نكون أمّهات.

لا ألومك على المعاناة. لكني لا أستطيع أن أقبل السهولة التي تعودين بها بعد كل جهد إلى مكانك الأول مكتئبة ويائسة، لأنك لا تملكين ذلك الحقّ، لأنك لا تستطيعين أن تتحمّليه. لأن لديك طفلًا. مَن سيقف خلفه؟! مَن سيدعمه؟! مَن، إن لم تكوني أنت؟!

لينا، لينا، يا ابنتي البكر. هذا أيضًا سوف يمرّ. سوف تستمرّ الحياة. سوف ينقضي الألم. ليس كُلّيًا، ليس نهائيًا، لكنْ؛ سوف ينطفئ كُلّيًا، ويذكّرك فقط بنفسه بين الحين والآخر، سوف تتعلّمين أن تتعايشي معه، أن تخمديه بسرعة، وتنظري قدمًا؛ لأن الماضي ميت.

مثل أبيك، الذي دفنّاه. هل تعرفين أنه لم تكن تربطني به علاقة حبّ أبدًا؟ ليس أني لم أحبّه. لم تكن تربطني به علاقة حبّ بتلك الطريقة الرومانسية الموصوفة في الكُتُب والأفلام. أنت تعرفين القصّة، لقد سمعتِها مرّات عدّة. عن الفتى الذي كان يأتي إلى المتجر يوميًا، وينظر نحوي بخجل وارتباك لمدّة أربعة أو خمسة أشهر، قبل أن يستجمع شجاعته؛ ليطلب مني أن نخرج. ما لا تعرفينه هو أن الفتى الخجول والمريض لم يثرْ بداخلي سوى الشفقة.

وأني خرجتُ معه فقط لأن ابن صاحب المسكن الذي كنتُ أراه لفترة، وأعتقد أن هناك شيئاً خاصاً بيننا، خطب فجأة، وبعد أن بللتُ الوسادة طوال الليل، ابتسمتُ في الصباح لوالدكِ، وبدأ يتحدّث إليّ، بذلتُ جهدًا للخروج معه؛ لأتعرّف إليه، لأحبّه، ولم أندم على ذلك القرار يوماً، لم يكن دومًا سهلًا طوال سنوات، لكني كنتُ قد قرّرتُ أن أكرّس له نفسي، أن يكون لديّ عائلة، أن أنجبكِ وأخيكِ، كنتُ سعيدة معكما، بنجاحكما، وعواطفكما، بحنان والدك الأخرق، بحياتي العادية، لأنه، يا لينا، لا شيء أكثر أهمّيّة في الحياة من أن تكون عادية، سوى قلّة الضجيج. عندما تخرجين من هذه الأوقات، أعتقد بأنكِ ستشعرين بذلك، وعالمكِ سيصبح أكثر إشراقًا وهدوءًا. سترين. أنا واثقة من ذلك.

هل تعلمين أني أفتقده كثيرًا، لدرجة أني أرفض التفكير فيه، في الماضي، تلك السَّنوات المباركة التي أمضيناها معًا. إذا عدتُ إليها، سوف أغرق، ولن أكون قادرة على العوم. إنه ليس آمنًا، فقط في أحلامي. أو في ذاكرة متطفِّلة. فيكِ وفي أخيكِ غالبًا.

يا فتاتي العزيزة، كل شيء ينتظركِ. حبّاً بالله، لا أعرف ما هذا الشيء، لكني أعلم بأنه سيكون كذلك، لديكِ طفل رائع، ستأتي البقية من تلقاء نفسها، البقية هي اليوم الراهن والآن تمامًا للأشياء الصغيرة، تشبَّثي بها، تشبَّثي باليوم! وكوني شاكرة للناس الذين يحبّونكِ، هل تعلمين كم كبير هذا؟! وكيف كل شيء كذلك؟!

-٥١-

رفضت أمّي في الصَّباح المجيء معنا. ولم تلحّ جدَّتي عليها. ذهنا سوية. كانت هادئة في الطَّريق، وبدت مستغرقة في التفكير. تذكَّرتُ الصَّمت الذي كان يسود غالبًا بين أمّي وأبي (والذي بدَّدتْه مونيكا بحضورها، حتّى لو بدا أنهما لم يتحدّثا مع بعضهما، بل معها). شعرتُ في ذلك الصَّمت أحيانًا كأني كنتُ وحيدًا في العالم. أحسستُ بقشعريرة، جعلتْني أشعر بالبرد. تمنّيتُ أن يقولا شيئًا، أن تُمطر الكلمات، أن ينطقا بشمس تزيح البرد. في أوقات أخرى، شعرتُ بأن أمّي يخالجها الشُّعور نفسه، وأننا كلانا محتجزين في صمت أبي، كما لو كنا في قفص، وننتظر كلماته كأنها مفتاح لحُرّيّتنا. كلماته اللطيفة. الطريقة التي اعتاد أن يتحدّث بها مع مونيكا. هل تسمعها أمّي أيضًا؟

خشيتُ من أن تمضي أمّي أيامًا باكية في السَّرير ثانية. ثمّ شعرتُ أنه من الأصلح أن أفكّر بوجود جدّتي. لكنْ؛ ماذا عن قادم الأيام، عندما نصير بمفردنا؟

-٥٢-

لم تكن الشَّمس ساطعة ذلك اليوم. لكن الهواء كان ثقيلًا. نظرتُ في أرجاء الشاطئ بحثًا عن سيلڤيا، لكنها لم تكن موجودة. نزلتُ وجدّتي إلى البحر. استرخيتُ. لم يكن لدي همَّة لأتحرّك. غمرني ثقل الهواء. لكنْ؛ ما إن سلَّمتُ جسدي للماء حتّى خفَّ ثقله، تخيَّلتُ أنني مركب. تخيّلتُ أني سأعوم نحو الأفق لأيام، من موجة إلى أخرى، إلى أن أصل إليه. من موجة إلى موجة، من موجة إلى موجة...

سمعتُ صوت جدّتي تصيح: "مارتي، مارتي، أنت تبتعد كثيرًا!"

أجفلني صوتها. انتفضتُ مستيقظًا، لكني شعرتُ أني كنتُ أغرق. حاولتُ أن أجد موطئ قَدَم، لكني لم أتمكّن من بلوغ القاع. وبسرعة شديدة، صرتُ تحت الماء. ذُعرتُ، وابتلعتُ الماء. حاولتُ أن أسبح، لكنْ؛ بغتةً بدا كأن جسدي مصنوع من الرَّصاص، ولم أتمكّن من الحركة. فجأة، لم أعد مركبًا أبدًا. كانت جدّتي تسبح صوبي، لكن حركاتها كانت بطيئة كما يحدث في الأفلام عندما يعرضون شيئًا على غاية من الأهمّيّة، ويحدث الأمر في حركة بطيئة. غرقتُ بشكل أكثر عمقاً، وابتلعتُ مزيداً من المياه. وعندئذٍ ليس فقط جدّتي، لكنْ؛ أيضًا أمّي وأبي ومونيكا وسيلڤيا وأليكس كانوا كلهم يسبحون نحوي-ببطء أيضًا، كما في الأفلام، لكنهم لم يبلغوني لسبب ما. كنتُ أتحرّك نحو الأفق الذي أصبح متوهّجًا، متوهّجًا...

-٥٣-

لم أصبح وأليكس صديقين في الحال. في الحقيقة، حتّى السَّنة الماضية لم نكن قد تكلّمنا إلا بالكاد. جلست على الجانب الأيسر من الصفِّ الرابع، في العمود الثالث، في حين جلست إلى اليمين، الصَّف الأول، العمود الأول. يفصل عمود بكامله بيننا، إضافة إلى القاعدة غير المعلنة عن أنَّ الصِّبية لا يتحدّثون إلا إلى الصبية والفتيات مع الفتيات. وعلاوة على ذلك، كانت مثالية جدًا، بشعرها المعقود في ربطتين أو ضفيرتين بحسب مزاج أمّها اليومي، وفساتينها الصغيرة المكويَّة وكاملة النظافة، وحقيقة أنها كانت دومًا مستعدَّة، وترغب في المشاركة في الدرس، غمّازتاها العميقتان، عيناها الواسعتان، وأني لم أكن مهتمًا على الإطلاق بالتحدّث معها.

كانت كأنها من عالم آخر مُنظَّم للغاية، لكنه مملٌ أيضًا. ولم يكن عندي فضول بتاتًا أن أسترق النظر إليه. رأيتُها في أثناء الاستراحات بين السَّاعات الدّراسية مع صديقاتها، بيتيا الممتلئة التي كانت تجلس معها بفمها الكبير ونظّارتها، وآنا الطويلة التي فاقت جميع الفتيات طولًا في الصَّف مثل طائر اللقلق. جلسنَ دومًا في مكان ما معًا، أو تجولنَّ في الرِّواق، أو عند السَّبورة، تهمسنَ، وتضحكنَ على شيء ما. أنا، من ناحية أخرى، كنتُ أجلس وحدي عادة، وأقرأ.

انضممتُ أحيانًا إلى الفتية في اللعب، وكنا نركض حول الرواق، أو

نركل كرة ورقية، لكني سريعًا ما كنتُ أشعر بالملل، وأعود إلى منضدتي. راقبتُ زملائي يتحدّثون، ويلعبون، لكنْ؛ لم يكن لدي رغبة في المشاركة. ذات يوم اتّصلت المُدرِّسة بأمّي، وقالت لها إنني انطوائي، وسيكون من الجيد أن أزور المرشد النفسي في المدرسة. لاحقًا سمعتُ أمّي تخبر أبي بالأمر. تساءلت إذا كانت الانطوائية أمر سيئ. إذا كانت داء، وإذا ما كانت تعني بأني لستُ طبيعيًا. قالت أمّي للمُدرّسة إنَّ الناس مختلفين، وحتى لو كنتُ انطوائيًا، فهي لا ترى في ذلك مشكلة طالما أني لا أعاني بسببها. وبأني لستُ بحاجة لمراجعة مرشد نفسي قبل أن تظهر عليَّ أعراض المعاناة. قالت لأبي عن ذلك أيضًا، فشخر دون أن يقول شيئًا.

نظَّمت المدرسة السنة الماضية رحلة لثلاثة أيام إلى تريافنا، وسألتُ والديَّ إذا كان في مقدوري الذَّهاب. كان رحلتي المدرسية الأولى. تناقش أمّي وأبي ليومين، وأخيرًا قرّرا السَّماح لي بالذهاب.

-٥٤-

تسلّينا كثيرًا في الحافلة على الطريق. غنّينا الأغاني، واستمعنا إلى الموسيقى، وروينا النُّكات. أتذكَّر أن أليكس كانت جالسة في المقدّمة مع بيتيا، ولم تكونا تشاركان كثيرًا. لم تتمكّن آنا من المجيء؛ لأن والديها لا يستطيعان تحمُّل تكاليف الرحلة. كنتُ جالسًا مع قسطنطين، وهو فتى قوي وصاخب جدًا، كنتُ أهابه قليلًا. كانت كلُّ ألعابه فظّة تمامًا، وفضَّلتُ ألا أشارك فيها عندما أتمكّن من تفاديها. غير أني لم أفعل ذلك كثيرًا، وإلا لجعل مني أضحوكة، وناداني بـ "المخنَّث". توقَّفنا مرّتين أو ثلاث للاستراحة، ووصلنا إلى تريافنا عند الأصيل. تحقّقوا من عددنا في نُزل فيه مهجعين، يحتوي كل واحد منها عشرة أسرّة، واحد للصبية، وآخر للفتيات. ثمّ ذهبنا في نزهة حول البلدة.

-٥٥-

بدأت الحفلة الحقيقيَّة ليلًا، عندما أوينا إلى أسرَّتنا. روينا القصص لبعضنا البعض، استمعنا للموسيقى من هواتفنا، ومن أجهزة "الآي بود". وفجأة قال قسطنطين إنَّ علينا أن نُخيف الفتيات.

قال يوردان: "لا، سوف يصرخنَ، وسوف تأتي المُدرِّسات". يوردان فتى سمين مُدوَّر الوجه يرتدي نظّارة بعدستين مُدوَّرتين. بشكل أساسي كل شيء فيه مُدوّر. حتّى علامة "جيد" التي تمنحها له المُدرّسات تبدو غالبًا مُدوَّرة. لهذا السَّبب هو في مقام القائد بيننا. وأيضًا لأن آباءنا، أو على الأقلّ، والداي والمدرّسون يقولون إنه "ذكيٌّ" جدًا.

قال يوردان: "لديَّ فكرة أفضل"، وجّهنا آذاننا إليه. "سوف نخترع مقلبًا ما، سوف نُحدِّث الفتيات عنه، ونتَّفق على أن نفعله مع واحدة منهنّ. بهذه الطريقة نشارك جميعنا، ولن يعرف المُدرّسون بالأمر. فلا يفسدوا علينا التسلية".

سأل روسي: "ولماذا تظنّ بأن الفتيات سيوافقنَ على اختيار واحدة؟ وأنهنّ لن يُخبروها؟" وروسي فتى نحيل يبدو شبيهًا بأرنب.

قال يوردان كما لو أن الأمر واضح: "لأنَّ الفتيات هكذا. يتظاهرنَ بأنهنّ صديقات، لكنْ؛ يطعنَّ بعضهنَّ في الظَّهر. سوف ترى، ستوافق جميعهنّ. وأيضًا سوف يأتينَ بأفكارهنَّ عن المقالب".

كان يوردان مقتنعاً تمامًا أن علينا موافقته الرأي.

حتّى قسطنطين انضمّ على مضض قائلاً إن الأمر أكثر "استراتيجية" بتلك الطريقة. وضعنا خُطّة.

كي لا نلفت الانتباه ونثير الشُّكوك، سوف يطرح يوردان وميهيل، زميلنا المتفوّق الآخر، الفكرة على أنطونيا زعيمة الفتيات، فيمكنهما أن يريا ردّة فعلها. إذا وافقت على الخطّة، ستطلب من الفتيات الأخريات اختيار ضحية مقلبنا.

-٥٦-

في اليوم التَّالي، وضعنا الخُطَّة موضع التَّنفيذ. زرنا بعض المتاحف، لا أتذكّر أسماءها على الإطلاق. شعَّت على سقوف المتحف الأوّل شموسٌ منحوتة في الخشب، بينما عاش الشَّاعران الشهيران بيتكو وبينشو سلافيكوف، الأب والابن، سابقًا في المتحف الآخر. في ذلك الحين، لم أكن بعد قد قرّرتُ أن أصبح كاتبًا، لكني بصراحة كنتُ منجذبًا سلفًا إلى الكتابة؛ إذ أتذكَّرهما. كنَّا نحن الفتية جميعنا، نتباحث فيما إذا كانت خطّتنا ستنجح أم لا. لكي أكون صادقًا، لم أكن متأثّرًا بالمقلب، بقدر ما كنتُ أفعل بشأن اتّصالنا الأوّل مع الفتيات. بين زيارات المتاحف، لاحظتُ يوردان وميهيل يذهبان إلى أنطونيا، ويبادرانها بالحديث. أخفضت رأسها للحظة، ثمّ ابتسمت. أصغتْ لما كانا يقولانه، وأومأت. تبادلوا بعض الكلمات، وافترقوا.

عند موعد الغداء، انتشر النَّبأ سريعًا. وافقت أنطونيا! نعم! في الأصيل، ستتحدّث إلى الفتيات، ثمَّ ترسل رسالة نصّيَّة إلى يوردان، تحمل اسمًا وفكرة المقلب. وعند العشاء، سيتناقشان في التفاصيل.

تحدَّثنا في استراحة ما بعد الغداء عمَّا سيحدث. كنَّا جميعًا متحمّسين جداً. بدأنا نتكهَّن عمَّن تكون الفتاة المختارة. كانت دومًا أسماء فتيات، لسنَ على قدرٍ كبير من الجاذبيَّة. هل ستكون بيتيا بفمها الكبير؟ أو أكسينيا النَّحيلة والغاضبة دومًا؟ أو ليانا الهادئة بنظّارتها؟ وفيما نحن نتساءل، رنَّ

هاتف يوردان. ساد الصَّمت في الغرفة، أخذ الهاتف ببطء مُتعمَّد، فتح الرسالة بتعبير جدّيّ، وحدَّق في الشَّاشة صامتًا.

"هيه، هيا، أخبرنا! هل هي أكسينيا؟"

"أو بيتيا؟"

نظر يوردان نحونا، وقال بعد بضع ثوان، بدت دقائق بالنسبة لنا:

"لم يصب أحدٌ".

"مَن تكون؟ مَن؟"

"أليكس".

صمتنا جميعاً من جديد.

سأل روسي بصوتٍ مضطرب، وبدا كأرنب دائخ: "أليكس؟ لماذا أليكس؟"

قال قسطنطين الذي كان واقفًا على الهامش لفترة طويلة: "ولمَ لا؟ أسلوبها في التَّحضير للدروس، مزحة صغيرة لن تؤذيها!"

قال يوردان بإقناع وبجدّيَّة تامّة: "قالت أنطونيا إنها فكرة بيتيا. لأن أليكس كما يبدو كانت متفاخرة بنفسها كثيرًا مؤخّرًا، وبتلك الطريقة سوف نلقّنها درسًا".

قلتُ مذهولًا: "لكنْ؛ أليست بيتيا صديقتها المقرّبة؟"

قال قسطنطين: "وماذا يعني؟ هي التي تعرفها أفضل معرفة، لنفكّر في نوع المقلب الذي يمكن أن نفعله معها".

قال يوردان: "الفتيات لديهنَّ اقتراح، عن شخص يتسلّل ليلًا، ويضع الزِّينة على وجهها. ثمّ عندما تستيقظ، تُلتقط لها صورة. لكن بيتيا تذكَّرت مقلبًا آخر، تعرفه من أمّها التي قامت به ذات يوم. بدلًا من الزينة، وضعوا طلاء أحذية على الوسادة. يمكنك أن تتخيّل كيف سيبدو وجهها الأبيض، هاها!"

قال قسطنطين متأثّرًا: "هذه فكرة عظيمة!"

بدا أن الفتيات نلنَ احترامه للمرّة الأولى.

سألت: "من أين سنحصل على طلاء الأحذية؟"

قال يوردان ثانية: "تملك الفتيات أنبوبًا، ستعطينا أنطونيا إيَّاه بعد العشاء، نحن نحتاج فقط أن نقرّر مَن سيقوم بالمهمّة".

صمتْنا.

قال يوردان: "أنا تولّيت أمر المباحثات. ليقم شخص آخر به".

قاطع ميهيل: "كنتُ جزءًا من المباحثات أيضًا، ماذا عنكَ، يا قسطنطين ؟ "

"أنا ثقيل، سأثير ضجة كبيرة".

"إذنْ؛ نحتاج إلى شخص خفيف وضئيل"، نظر يوردان من حوله، وتوقفت عيناه عند رومِن. كان جالسًا في طرف المهجع القصيّ، وصوته لا يكاد يُسمَع كالعادة. رومن فتى نحيل، ضئيل، لديه نمش، وعينان زرقاوان مستديرتان كالأزرار. عندما سمع اسمه، ورأى تسعة أزواج من العيون تحدّق فيه، بدأ يرمش باستمرار.

"لكنْ؛ لماذا أنا؟"

"ماذا تعني بلماذا؟ أنت تناسب المهمّة. ما المشكلة؟ هل أنت خائف، أيها الضَّعيف الصغير؟"

ضحك قسطنطين بصوت مرتفع.

قال رومن بهدوء: "أنا لستُ خائفًا. ولستُ ضعيفًا، فقط لا أظنّ أن.."

"لا تفكّر. الأمر لا يحتاج إلى كثير من التفكير. سيستغرق الأمر ثلاث دقائق، لا حاجة إلى التفكير. تأخذ الأنبوب، تتسلّل إلى سريرها، تدهن جانبي الوسادة بالطلاء، ثمّ تخرج، لا حاجة إلى التفكير".

لا أعرف عن الآخرين، لكني لم أكن أشعر بالتسلية. حتّى إني بدأت أشعر بالانزعاج بعض الشيء. والبقية صمتوا أيضًا. كان هناك ذبابة تَرُّ في المكان. أزيزها مسموع بوضوح في الغرفة. بدأتُ أتبعها بعيني. بعد أن قامت بعدّة دورات، توجهت نحو النافذة؛ حيث حطَّت على الزُّجاج. وقف قسطنطين فجأة، توجَّه نحو النافذة بثلاث خطوات، وضغط راحة يده على الذبابة. أزاح يده، وبقيت الذبابة ملطّخة على النافذة، وبقعة صفراء خرجت من جسدها.

-٥٧-

كان الجوّ في غرفتنا مفعمًا بالحيوية تلك الليلة. كنَّا لا نزال نتحدَّث في أمور شتَّى، لكن الجميع كان مشدودًا لسماع صوت وصول الرِّسالة التي كان يفترض أن ترسلها أنطونيا إلى يوردان. أعطته الأنبوب على العشاء. رومن وحده كان صامتًا، وبدا قلقًا. مرَّ وقتٌ طويل. بدأنا نتساءل فيما إذا غيّرت الفتيات رأيهنّ. في الحقيقة، أردتُ أن يحدث هذا نوعًا ما. لأنهنّ كنَّ يتسلّينَ بنا. ربمّا كذبت أنطونيا، والآن تسخرن منَّا. لا أعلم لماذا، لكني شعرتُ بالسُّوء على أليكس. حتّى لو لم نكن صديقين في ذلك الحين. حتّى إني وجدتُها مملَّة. لكنْ؛ كان هناك شيء في عينيها، في غمّازتيها. خطر لي أن طلاء الأحذية سوف يمحوهما إلى الأبد.

وصلت الرسالة النَّصّيّة بينما كنتُ أفكّر في هذا كله! نظر يوردان إلى هاتفه، وقال بجدّيَّة:

"حان وقت التَّحرُّك".

وناول الأنبوب لرومِن. وبدا لي أن وجهه لم يعد متورّدًا، بل شاحبًا. حتّى إنه ارتعش قليلاً. كانت أصابعه ترتجف عندما تناول الأنبوب. ومع ذلك، أخذه، وخرج من الباب.

انتظرنا بصمت. ومرَّت فترة طويلة أيضًا. ظهر رومن أخيرًا. دخل، ورمى الأنبوب الفارغ في سلَّة المهملات، وتوجَّه نحو سريره دون أن ينبس بكلمة.

قال قسطنطين بنفاد صبر: "لماذا أنت هادئ جدًا، يا رجل؟ ألا ترغب بإخبارنا ما حدث؟"

أجاب رومن: "لم يحدث شيء. تمَّ تنفيذ العمل".

"هل طليتَه جيدًا؟ على كلا الجانبين؟"

"لقد عصرتُ كامل الأنبوب".

ثمّ التفتَ إلى الجانب الآخر، ولم نتحدّث بعد ذلك.

-٥٨-

أويقظتْنا أصوات صراخ وضحك. كانت قادمة من غرفة الفتيات. هرعنا جميعًا إلى هناك بملابسنا الدَّاخلية. اندفعنا إلى الدَّاخل، ورأينا الفتيات تُولولنَ ضاحكات، وفي وسط كل ذلك الهزل كانت أليكس جالسة على سريرها. لو لم أكن أعرف أنها هي لم أكن لأميّزها أبدًا. كان وجهها، وشعرها الجميل، وعنقها، جميعها سوداء اللون. بدت مثل إفريقية. أولًا أردتُ أن أضحك أيضًا. لكنْ عندئذٍ رأيتُ ملامحها. كانت لا تزال تحت تأثير النوم، ولم تفهم ما الذي كان يجري. كانت تغضِّن أنفها من رائحة الطلاء، وتنظر إلى سريرها. رفعت يدها إلى وجهها، ومسَّته. نظرتْ إلى أصابعها، كانت قد اسودَّتْ أيضًا. أتذكر الذُّهول الذي كان باديًا على وجهها. رأيتُه تحت السَّواد.

صاح قسطنطين بغلظة: "مزحة صغيرة. مزحة صغيرة، جلالتكِ".

ضحكت الفتيات الأخريات جميعًا معًا.

ثمّ لا أعرف ما الذي حلَّ بي. حقًا لا أعرف. شعرتُ بإحساس حارق. أردتُ أن أصفع الجميع. كلّ من الفتيان والفتيات، حتّى لو أني أعرف بأنه ليس عليك أن تضرب الفتيات. قفزتُ قدمًا، ذهبتُ إلى سرير أليكس، أمسكتُ بيدها، وبدأتُ أشدُّها.

صاح قسطنطين: "أيها المُخنَّث!".

ضحكت أنطونيا: "هيه، فارس! أليكس لديها معجب".

لم أبالِ بهما. جاءت أليكس معي، وأخذتُها إلى الحمام؛ لتغتسل. ثمّ جلبت لها منشفة.

على الفطور، جلستْ أليكس بقربي. جلسنا منفصلين عن باقي طلاب الصَّفّ. جلسنا معًا في الحافلة في طريق العودة. عندما عدنا إلى المدرسة، شاركتْني الجلوس في المقعد نفسه.

وهكذا بدأت صداقتنا.

-٥٩-

كان أول ما رأيتُه عندما فتحتُ عيني وجه أمّي منحنياً فوقي. وجه أمّي الخائف. كانت عيناها مفتوحتين باتّساع، تحيط بهما هالتان سوداوان.

سألتْني: "مارتي، هل أنت بخير؟". سمعتُ صوتها بالكاد.

أجبتُ: "نعم". بدا صوتي واهنًا جدًا أيضًا. "أين أنا؟"

"في المستشفى".

"لماذا؟"

قالت أمّي: " ألا تتذكّر، كدت تغرق البارحة". ونشجتْ.

شعرتُ بالحزن عليها، لكنْ؛ بالسَّعادة أيضًا. إذا كانت تبكي، هذا يعني بأنها تحبّني.

"لم يبقَ لي سواك في هذا العالم، وكدتُ أخسرك.. سامحني، سامحني، يا فتاي! أنا حمقاء. أحبُّك كثيرًا!"

لم يسبق أن تحدّثت أمّي بهذا النحو يومًا. أتذكَّر رغبتي في الذَّهاب للعيش مع أبي ومونيكا. كيف فكَّرتُ بمثل هذا الأمر؟ إذا هجرتُها أنا أيضًا، ماذا ستفعل بمفردها؟ أنا حقًا لم يعجبني الأمر عندما صفعتُ مونيكا. لكنها أمّي، وأنا وحيدها. استجمعتُ قوَّتي، وهمستُ بصعوبة:

"أحبُّك أيضًا أمّي".

عانقتْني، كما عانقتني جدَّتي منذ بضعة أيام. لم أشرْ إلى أنَّ جدّتي كانت هناك أيضًا. لم يسبق أن رأيتُها قلقة إلى هذه الدرجة. كانت عيناها حمراوين. قالت لي إنها آسفة حقًا؛ لأنها لم تكن قريبة مني في المياه.

طمأنتُها: "هذا ليس خطأك، جدّتي، كانت روح المياه".

مرّة عندما كنتُ أتناول الفطور مع مونيكا، وكان التلفاز يعمل، قالوا في الأخبار إن فتى غرق في نهر قريته. عندما سألتُ مونيكا عن سبب غرق ذلك الشخص، قالت لي إن روح المياه أخذتْه. الروح قوية جدًا، فلا يمكنك أن تغلبها في أحوال كثيرة، وتغرق. الآن أعرف أن هذا صحيح. شعرتُ بقوّة روح المياه شخصيًا. لكني لم أشرح ذلك لأمّي ولجدّتي، لأني لو فعلتُ، سيتوجب عليَّ أن أذكر مونيكا، وأمّي ستنزعج ثانية. بينما كنتُ أحتجز قصّتي في داخلي، انفتح الباب فجأة.

"ها هو بطلي!"

هذا الصَّوت، لا يمكنني أن أخطئه. نظرتُ، وللمرّة الأولى منذ أن غادر، رأيتُ والدي.

-٦٠-

وهكذا نجمت أمور جيدة عن غرقٍ وشيك. بالإضافة إلى مجيء والدي الذي جعلني أدرك إلى أي حدّ افتقدتُه، جاءت سيلڤيا ووالدتها لرؤيتي، وكذلك أليكسندر ووالدته. شعرتُ بأني بطل إلى حدٍّ ما. قصَّة حادث أليكسندر لم تكن شيئًا بالمقارنة مع قصّتي. كان في السَّيارة مع والديه، بينما كدتُ أغرق بمفردي تماماً. أظنُّ أن سيلڤيا لم تعد غاضبة مني الآن، لأنها وهي جالسة على السَّرير أمسكتْ بيدي، وأبقتْها في يدها. قالت لي إنهما ستغادران خلال يومين، وعلينا بالتأكيد أن نرى بعضنا قبل ذلك. كان أليكسندر ينظر نحوي بشكل مختلف أيضًا.

سألني: "هل كان مخيفًا، يا أخي؟"

الجميع جلب لي الشوكولا والفاكهة، كما لو أني كنتُ مريضًا. وجلب أبي لي هديَّة، هاتفاً جديداً أفضل بكثير من هاتفي القديم، يمكنني أن ألتقط الصُّور بواسطته أيضًا!

تحدَّثتُ مع والدي حديث الرجال. تركتْنا أمّي بمفردنا.

قال: "يا فتاي"، ونظَّف حنجرته، "لقد افتقدتُكَ كثيرًا هذه الأشهر الأخيرة. لا يمكنك أن تتخيَّل كم أنا آسف.."

أردتُ أن أسأله إذا كان هذا يعني أنه عائد إلينا. لكنْ؛ حينها تذكّرتُ سؤالًا لم يكن يقلُّ أهمّيّة.

"أبي أريد أن أسألك عن شيء".

"قل لي، يا فتاي".

"حسنًا، أنت تعرف أليكس، نحن نجلس معًا في الصفّ. نحن صديقان، وتعجبني كثيرًا. لكنْ؛ هنا التقيت بسيلڤيا. تعجبني كثيرًا أيضًا. لا أعرف ماذا أفعل، ولا يوجد مَن أسأله".

تنهَّد والدي، وابتسم للمرّة الأولى. ثمّ أصبح جدّيًا.

"من الصَّعب أن تسدي نصيحة حول هذه الأمور. أنت وحدك تعرف كيف تشعر. أي واحدة منهما أقرب إليك.. إذا كنت لا تعرف ستكتشف ذلك مع الوقت. الزمن سيعطيك الجواب".

"وعلى أيّ جواب حصلتَ؟ كيف عرفت عن أمّي ومونيكا؟"

سعل والدي.

"ماذا في وسعي أن أقول... عندما التقيتُ والدتكَ، أصبحتْ هامّة جدّيًا لديّ. أحببتُها كثيرًا. وسوف أحبّها دومًا.. مثل شخص تقاسمتُ معه جزءًا كبيرًا من حياتي. أمضينا سنوات معًا. وأحيانًا، عندما تمضي سنوات مع شخص، حتّى لو كان مقرَّبًا وعزيزًا، تدرك ذات يوم أنه لم يبقَ أشياء كثيرة تربطكَ به. أنت الوحيد الذي سيربطنا، أمّك وأنا، دومًا. أنا أريد أن أكون جزءًا من حياتكَ دومًا. تمامًا كما ستكون دومًا جزءًا من حياتي. لا أريد أن نفترق ثانية. قد تتوقّف عن العيش مع مرور السنين في علاقة طويلة مثل تلك... تفكّر بأنك كائنٌ فقط، ولستَ حيًا. أنت تفعل كل شيء بطريقة تلقائية. ربمّا لن تدرك ذلك أبدًا، إلى أن يظهر شخص آخر، امرأة أخرى، يمكنها أن تساعدك على أن تبدأ الحياة من جديد. أن تبدأ بالابتسام. وأن

تفهم بأنك لم تكن تعيش منذ وقت طويل. هذا ما حدث معي، مع أمّك، ومونيكا. لا أعرف إذا كنتَ تفهمني".

حينها تذكَّرت أنه بعد أسبوع أو أسبوعين من الفيلم الذي شاهدتُه مع مونيكا، سمعتُ للمرّة الأولى شيئًا مختلفًا في صوت أمّي، وهي تتحدّث إلى مونيكا. قالت أمّي إنها كانت متعبة حقًا، وكانت تروي لنا قصة مقرفة عن شخص في عملها. فقاطعتْها مونيكا بغتة بعذوبة قائلة:

"لكنْ؛ لينا، لا أفهم لماذا تبقين في عملك ذلك؟ أنت تعودين إلى البيت ممتلئة بطاقة سلبية، منهكة ومرهقة، تقريبًا كل ليلة. لماذا تحتاجين إلى ذلك؟ أنت فقط تدمّرين نفسك".

نظرتُ إلى وجه أمّي عن كثب، ورأيتُه. نعرف وجوه آبائنا جيدًا، ونألفها حتّى إننا نكفُّ عن رؤيتها. لكنْ؛ تلك الليلة رأيتُ أن أمّي كانت مرهقة، وأنها هرمَت. بينما كان وجه مونيكا نضرًا وأملسًا، كما لو أنها كانت تصغرها بعشر سنوات على الأقلّ.

قالت أمّي: "ماذا تعنين بلماذا، مونيكا؟" وحينها سمعتُ الفرق. "هذه الحياة، عمل وواجبات. لا يمكننا أن نقرّر التَّخلي فقط لأننا متعبون. لدي طفل ومسؤوليات أخرى. لا يمكنني فعل كل ما يحلو لي".

خالفتْها مونيكا: "أنا لا أرى الحياة بتلك الطريقة، الحياة قصيرة جدًا لنضيعها في أمور تُثقل علينا، وتُدمِّرنا. نحن هنا؛ لنختبر الفرح، ونفعل ما نحبّ. ثمّ يساعدنا الله".

كان أبي يصغي باهتمام، لكنه لا يقول شيئًا.

"إذنْ؛ هل في وسعك أن تخبريني كيف ساعدك الله في المجيء إلى

صوفيا، لو لم ندعُكِ إلى بيتنا؟ هل كان الطعام على هذه الطاولة من الله؟ أم من عملي وعمل إيڤان؟ هل الخمر الذي تشربينه من الله؟"

أسبلت مونيكا جفنيها. اعتقدتُ أنها ستبدأ بالبكاء، لكنها قالت بهدوء:

"كل شيء من الله، بالنسبة لكما، لا يمكنني أبدًا أن أكافئكما".

قالت أمّي بلطف أكثر بقليل: "أوه، هيَّا، ليس هذا ما عنيتُه. نحن لم نفعل شيئًا حقًا، أنا فقط أردتُ أن أقول إنَّ وضعي مختلف. أنا لديّ مسؤوليات كثيرة، ولا يمكنني أن أمنح نفسي وراحتي الأولوية. كوني مسرورة لأنك تستطيعين تحمُّل ذلك".

"مارتي؟" سحبني والدي من ذكرياتي.

قلتُ له: " أفهم، أنت لن تعود، لكنْ؛ شكرًا لك، أنا وأمّي سوف نتدبّر أمرنا".

-٦١-

أخرجوني من المستشفى في وقت لاحق من اليوم نفسه. أوصلنا والدي إلى البيت، لكنه لم يصعد. عانقني بشدَّة في الشَّارع. حتّى إني شعرتُ ببعض الإحراج.

قال: "أنا آسفٌ؛ لأنَّ عليَّ المغادرة بهذه السرعة، لكنْ؛ لديّ عمل، يجب القيام به... سوف نرى بعضنا في صوفيا قريبًا، صحيح؟"

"نعم..."

"فتاي"، عبث بشعري. كان مختلفًا، ليس مثلما كانت تفعل مونيكا، إنما أكثر خشونة.

ذهبتُ إلى أمّي التي كانت تنتظرني في المدخل.

لكني لم أستطع منع نفسي عن الالتفات. كان أبي حيث تركته، وكان ينظر صوبنا. لوَّحتُ له، ولوَّح بدوره.

عانقتْني أمّي، ودخلنا. تساءلتُ إذا كانت ستبكي ثانية. لكنها بدت هادئة. فقط كانت عيناها أكثر قتامة وعميقتي التفكير.

ثمّ جاء خالي. عانقني قائلًا:

"بطلنا! أنت رجل صغير! واحزروا قصّة مَن سوف تُنشر في مجلّة أدبية؟"

الآن هذا حقًا أسعدني!

"أيّ قصّة؟" أرادت أمّي أن تعرف.

"ألم يخبركِ؟"

"لا أعرف شيئًا".

شعرتُ ببعض الضيق.

"هل يمكنني أن أخبرهما؟" غمزني خالي.

أومأتُ.

"يريد مارتي أن يصبح كاتبًا. كتب قصّة عن رحلتنا الصغيرة إلى البحيرة. أحبّها محرّر المجلّة الأدبية المحلّية، وسوف ينشرها".

ابتسمت أمّي، لكنْ؛ بدت عيناها حزينتين. ما الذي أحزنها؟ هل رغبتي في أن أصبح كاتبًا، أو لأن قصّتي ستُنشر؟

-٦٢-

جاءت أمّي إليَّ عندما أويتُ إلى السَّرير.

"مارتي، أنا سعيدة حقًا من أجلكَ. لكني حزينة لأنك لا تخبرني شيئًا. مع ذلك، لا ألومكَ، لم أكن أرى سوى ألمي في الأشهر القليلة الماضية. لم أكن أمًا كما يجب، لم أكن إلى جانبك. لو كنتُ كذلك، لما كان حدث ذلك الأمر البارحة..."

تنهَّدتْ، وأثقلتْ عينيها دموع، تمكَّنت من ابتلاعها بطريقة ما.

"لكن هذا أصبح من الماضي الآن ولا يمكنني تغييره. لن يحدث مجدّدًا. أتوسَّل إليك أن تسامحني. وآمل أن تثق بي أكثر في المستقبل. وأن تشاركني أمورًا هامة، مثل أنك كتبتَ قصّة. أنا فخورة بكَ، يا بني!"

انحنتْ أمّي عليّ، قبَّلتْني، وتمنَّتْ لي ليلة سعيدة. وتركتْني وحيدًا في الظلمة، شعرتُ بأن قلبي يرفرف مثل طائر.

-٦٣-

ذهبنا إلى الشَّاطئ ثانية. كانت سيلڤيا هناك مع أمّها أيضًا. تساءلتُ إذا ما كنتُ سأخشى النُّزول إلى الماء. لكنْ؛ لم أشعر بالخوف حتّى عندما كنتُ أغرق. كان مثل عناق، تغرق فيه وتنسى نفسك.. وتهدأ. قلتُ ذلك لسيلڤيا. أصغتْ إليَّ بجدّيّة وانتباه.

قالت أخيرًا: "إيروس وثاناتوس. جاذبية نحو الموت".

"المعذرة؟"

"ثاناتوس-جاذبية نحو الموت. إحدى غرائزنا الأساسية".

"وما الأخرى؟"

"إيروس، جاذبية نحو الحياة".

لا تكفُّ سيلڤيا عن إدهاشي. كيف تعرف هذه الأمور؟

"أنت تقصدين القول إني أردتُ أن أموت؟"

قالت: "أعني أني مسرورة بأنكَ حي، أيها الأحمق!" ورشَّتْني بالماء؛ لأننا كنا نتحدّث ونحن في الماء. أدهشني هذا أيضًا، كيف ترشُّ الماء باتجاهي مباشرة دون أن تراني. لو لم أكن أعرف بأنها كفيفة البصر، لما خطر لي ذلك أبدًا. رششتُها أيضًا، وتابعنا اللعب والضَّحك. كانت والدتانا دومًا بجانبنا. منذ أن أوشكتُ على الغرق لم تتركانا بعيدًا عن مرمى بصرهما.

في وقت من الأوقات هدأتُ، تسلّلتُ خلف ظهر سيلڤيا، وكانت تواصل رشَّ الماء في اتجاهي المتخيَّل وأمسكتُها.

بدأتْ تصرخ وتركل بذراعيها وساقيها، ثمّ التفتتْ، وكان وجهها فجأة قرب وجهي. حينها أردتُ أن أقبّلها. لو لم تكن والدتانا هناك، ربمّا كنتُ فعلتُ. طوَّقتُ عنقي بذراعيها، ومسَّ خدُّها خدِّي، وأدرتُها في الماء. كانت تضحك، لم أرها يومًا سعيدة إلى هذه الدرجة. كان شيء في داخلي يخفق بفرح. ربمّا كانت السَّعادة.

قالت لنا والدة سيلڤيا: "حسنًا، يا أطفال، حان وقت الخروج".

كانت جدَّتي على الشَّاطئ قبلنا تمارس اليوغا. أمسكت سيلڤيا بذراعي كالعادة، وتوجَّهنا إلى هناك. التحقنا بجدّتي، وبدأنا نمارس التمارين. ثمّ التأمّل. فيما كنتُ أزفر وأشهق وعيناي مغمضتين، رأيتُ الضوء الذي كان صادرًا عن جسدي. رأيتُ سيلڤيا أيضًا، دون أن أبصرها حقًا وأليكس، وأمّي وأبي وجدّتي.. لم أرَ أجسادهم ولا وجوههم، لكنْ؛ في الوقت نفسه كان لديَّ شعور بأني كنتُ أراهم على نحو أفضل من أيّ وقت مضى، أدمج نوري بنورهم. لا أعرف كم استمرَّ هذا، لكنْ؛ عندما فتحتُ عينيّ، فكّرتُ، لا بد أنها كانت تجربة غامضة. تحدّثتْ جدّتي أحيانًا عن تجارب غامضة بعد التأمّل. أولًا أردتُ أن أحكي لها، لكن شيئاً منعني من فعل ذلك، كما لو أني بتلك الطريقة أطيل أمدها.

مشيتُ أنا وسيلڤيا على الشَّاطئ باتّجاه بركة المياه المالحة للمرّة الأخيرة. كان ستغادر مع والدتها اليوم التالي. أردتُ أن نذهب إلى هناك أكثر من أيّ وقت مضى. وألا ينتهي ذلك الدَّرب الذي صنعتْه خطواتنا. لأنها كانت المرّة الأخيرة، أردتُ أن أقول أشياء كثيرة، لكنْ؛ لم أعرف ما هي.

-٦٤-

بدا كما لو أنَّ وقتًا طويلاً مرَّ، رغم أني لم أتغيَّب سوى يومين عن البركة، كان اجتماع المجلس البلدي سيُعقد خلال أربعة أيام. وهو موعد بدء الاحتجاج بحسب الخُطّة.

سألتْ سيلڤيا: "هل ستذهب إلى الاحتجاج؟"

"لا أعرف، ربمّا".

"سوف تخبرني فيما بعد".

"هل لديكِ حساب فيسبوك؟"

"لا، لديّ بريد إلكتروني".

غرفَت سيلڤيا من بلّورات الملح، وغطَّت كتفيها. ثمّ أخذت مزيداً، ووضعته على صدرها وعنقها. فعلتُ الأمر نفسه. شعَّت البلّورات بآلاف البقع الشَّمسية. أعرف أننا ندعوها أرانب الشمس، لكنْ؛ لا أحد يمكنه أن يعرف مَرَدّ ذلك. مَدَدْتُ يدي، ومَسَسْتُ البلّورات على كتفها.

"ماذا تفعل؟"

"ألاطف أرانب الشمس".

"هل في وسعكَ بلوغها؟"

"أحاول ذلك".

" كيف تبدو؟"

"مشعَّة، وعديمة الشكل".

"إذنْ؛ كيف تعرف بأنها أرانب؟"

"أعرف، أرى أرواحها الأرنبية".

" كيف يمكنكَ أن ترى الروح؟"

"ليس بالعينين".

"أظنّ أني أراها أيضًا".

وابتسمتْ سيلڤيا. دومًا حزينة وجدّيّة ابتسامتها تلك، لكنْ؛ أكثر دفئًا من ابتسامات كثيرة أخرى رأيتُها. تُشعرني بعض الابتسامات بالبرد، وأرغب بالهرب منها. هناك ابتسامات مثل الأقنعة البلاستيكية في كرنفالات المدرسة، لكنَّ ابتسامتها تمسك بي، وتقول لي: "أنا من أجلكَ، من أجلكَ وحدكَ، وأنا حقيقية حقًا". ابتسمتُ أيضًا، وواصلنا مراقبة أرواح الأرانب الصغيرة معًا، إلى أن قاطعتنا أمّي (هؤلاء الأمّهات يتدخلنَّ دومًا في أكثر اللحظات ملائمة) لتقول لنا إن وقت البركة انتهى، ويجب علينا الخروج.

ثمّ أرى الوقت داخل أوانٍ فيها ثقوب ولصيقات. شخص ما يصبّه من أعلى فيما سُمّي "بركة المياه المالحة". وعندما يفرغ الإناء، نأخذ واحدة أخرى، يجب أن يكون مكتوباً عليها "طين". من أوان أخرى، يتدفّق الوقت

بشكل متزامن، على سبيل المثال، الزمن في الآنيتين المسميتاين "بحيرة المياه المالحة" و "طين" يتدفّق مع الزمن في الآنية المسمّاة "سيلڤيا" التي سوف تنتهي غدًا أو الليلة، لنكون أكثر دقّة، عندما نفترق. كلّ واحد منّا لديه أوانيه، وبعض منها مشتركة مع أناس آخرين، بسبب الوقت الذي نمضيه معًا.

" ألا تسمعني، مارتي؟ أين حلّقتَ ثانية؟"

تساءلتُ إذا كنتُ سأقول لأمّي عن الأواني، قالت إنها تريد مني أن أشاركها أمورًا، لكني لا أظنّ أنها اللحظة المناسبة. خرجتْ سيلڤيا وأمّها، وحينها أوقفنا دندي.

سأل أمّي بطريقة جدّيّة عملية تمامًا، ليست متخبِّطة كالسابق: "هل ستشاركين في الاحتجاج؟"

قالت أمّي: "ربمَّا، إذا كنا لا نزال هنا".

"إلى أين أنتما ذاهبان؟"

"سنعود إلى صوفيا".

"صوفيا. إذنْ؛ في هذه الحالة يجب أن تأتي بالتأكيد إلى الشَّاطئ ليل الغد".

ابتسمتْ أمّي: "لماذا؟ ماذا سيحدث؟"

"نُضرم نارًا، غيتارات، تعالي، وسوف ترين".

"حسنًا .." بدأت أمّي.

" أين؟" قاطعتُها. نار وغيتارات على الشاطئ، بدا الأمر جيدًا جدًا بالنسبة إلي.

"على الطريق إلى بحيرة المياه المالحة. سوف نجتمع عند السَّاعة التاسعة. لكنْ؛ حتّى لو أتيتُم فيما بعد سوف ننتظركم". ونظر إلى وجه أمّي، فأشاحت ببصرها.

" أنا بلامين، بالمناسبة، لا أظنّ أننا تعارفنا".

"لينا، وهذا مارتن".

"أراكما في الغد، لينا ومارتن".

لم نلتقِ إلا عدداً قليلاً من الأشخاص على الدَّرب الخشبي المفضي إلى الطين. كان زلقًا جدًا اليوم. خطونا في الطِّين حتّى وصل إلى ركبنا، وبدأنا نطلي به أجسادنا كالعادة. ساعدتُ سيلڤيا في تغطية جسدها ووجهها. خلعت نظّارتها. وشعرتُ ثانية بأن عينيها الرماديتين تريان داخلي، مثل أشعّة إكس. ليس وجهي، لكنْ؛ أنا، ماهيّتي. رغبتُ حقًا أن تحبّ ما تراه. شعرتُ بأنَّ هذا أكثر أهمّيّة، سواء كانت ستحبّ أنفي، أو لون شعري.

قالت فجأة: "سوف أفتقد الطين، لقد اعتدتُ عليه كثيرًا. بدأتُ أحبّ مَلمسه، حتّى رائحته. أشعر بأني أحبُّ نفسي أكثر عندما أكون مَكسوَّة بالطين. وكلّ يوم أكون أكثر جِدَّة وأكثر نظافة. أظنّ أنه لو غطّى الناس أنفسهم بالطِّين مرّة في الأسبوع، سيكونون أفضل. وسيكون هناك طين أقلّ في أفكارهم وتصرّفاتهم".

تقول سيلڤيا أحيانًا أمرًا كبيرًا جدًا، فأحار بمَ أردُّ عليها. لم أتمكَّن من

الإفلات بتعبير رصين؛ لأنها لن تتمكّن من رؤيته. أتذكّر كم كنتُ مشمئزًا عندما ذهبتُ إلى الطين للمرّة الأولى. لكنْ؛ الآن أحبّه أيضًا. ثمّ أتذكّر مقالتي عن "أنا بلغاري". ربّما الأمور التي قالتْها لي مونيكا صحيحة. لكن هناك أسباباً كثيرة دفعت ڤازوڤ لكتابتها. مثل بركة المياه المالحة والطين والبحر. بالإضافة إلى أني أعيش الآن. لو لم أكن أحبّ وطني اليوم، متى سأحبّه؟

-٦٥-

مشينا ثانية على طول الشَّاطئ، والطين يغطّينا. كانت سيلڤيا تُمسك بذراعي. هناك دومًا بقعة أكثر إشراقًا في الطين؛ حيث تُمسك يدها بي. لا تجفُّ تمامًا. مثل شراع، حتّى لو كان الماء سيغسلها فيما بعد.

سألتُ سيلڤيا: "هل سنرى بعضنا البعض الليلة؟"

"بالتَّأكيد".

صمتْنا من جديد . واصل الرجال العُراة لعب الورق. فقط التَّاريخ المكتوب بالحصى أظهر أن الأيام تتغيّر، وأن نهاية الصَّيف قادمة. تساءلتُ كيف يتغيّر التَّاريخ؟ هل الرجال الذين يلعبون الورق؟ أم شخص آخر؟ ومتى؟ هل بعد منتصف الليل تمامًا كما يتغيّر في السَّاعة؟ أو حقًا في الصَّباح الباكر؟ هل في الوقت نفسه؟ أم في أوقات متباينة دومًا؟ هو بالتأكيد يحدث قبل نزهتنا، هل سيستمر في الخريف والشتاء أو ربمّا حينها سوف يختفي التاريخ المكتوب بالحصى، كما لو أن الوقت لا يجيء إلا في الصَّيف ويتوقّف في كلِّ الفصول الأخرى؟ لم أعرف أبدًا مَن يُغيِّر التاريخ.

وصلنا إلى البقعة التي نسبح فيها عادة، ونزلنا إلى الماء. بدأتُ أزيل الطين عن جسدي، ثمّ ساعدتُ سيلڤيا. شعَّت بشرتها الملساء بالنَّظافة، وكانت مرقَّطة بقطرات مياه البحر. أفكّر في جميع الأيام التي قمنا فيها

ابالأمر نفسه تمامًا. لكني سأتذكّر هذه المرّة، ؛ لأنها الأخيرة هذا الصَّيف. جدّتي وأمّي وأنا سنفعل الأمر نفسه غدًا من جديد، لكنْ؛ سيكون مختلفًا. وعندما أفكّر في الغدّ، لا أشعر حقًا بأني راغب في الذهاب إلى بركة المياه المالحة أبدًا.

-٦٦-

أردتُ أن أقدِّم لسيلڤيا هديَّة. على سبيل الذِّكرى. وتساءلتُ ما قد تكون. أردتُ أن تكون هدية مميّزة. لم أجرؤ أن أطلب من أمّي شراء هدية؛ لأني أعرف بأنها لا تملك ما يكفي من النقود. ولم أتمكّن حقًا من التفكير في شيء يمكن أن أشتريه، ويكون مميّزًا جدًا. بدأتُ أفتِّش في أغراضي، لكن معظم حاجيَّاتي كانت في صوفيا. كُتُب، ألعاب، كل شيء.. نحن لم نجلب معنا سوى القليل. علاوة على ذلك، لم أكن واثقًا حقًا من أنها ستحبّ ألعابي. وبينما كنتُ أنظر في أرجاء الغرفة، وقعتْ عيني على ريشة البجع. كنتُ أضعها في مزهرية صغيرة على الرَّف بحذاء منضدتي. لماذا لم أفكّر فيها مباشرة! كنتُ واثقًا من أنها ستحبّها. لكنها عزيزة عندي جدًا. مع ذلك، سوف أقدّمها لها. ربمّا أريد أن أمنحها لها بخاصة؛ لأنها مهمّة بالنسبة إليّ.

أخذتُها عندما كنا مغادرين.

سألتْ أمّي: "ما حاجتكَ إلى الريشة، مارتي؟!"

"أريد أن أقدّمها إلى سيلڤيا، هل تظنّين بأنها سوف تعجبها؟"

"أنا واثقة من ذلك. هل تريد أن أضعها في حقيبتي؟ يمكنني أن أعطيها لك لاحقًا".

حسنٌ أن حقيبة أمّي الصيفية كبيرة جدًا. ولو أن الريشة كانت طويلة،

كان أحد طرفيها خارج الحقيبة، ولم تغلق أمي السَّحاب حتّى آخره؛ كي لا تكسرها.

بدت سيلڤيا جميلة جدًا في فستانها الأبيض. لم أره من قبل، ربمّا يكون جديدًا.

قلتُ: "تبدين جميلة!"

"شكرًا لك. أنت تبدو رائعًا أيضًا".

أعرف أن ليس في وسعها أن تراني، لكني مع ذلك شعرتُ بتحسُّن؛ لأني أعرف أيضًا أنها مع ذلك تستطيع أن تُبصرني، وهي تقول حقًا ما تعتقده.

سألتْ ونحن نمشي على الطريق الرَّئيس: "هل ستأتي لزيارتي؟"

"نعم. متى؟"

"لا أعرف سنفكِّر في الأمر. سوف نتبادل الرسائل، صحيح؟ فيلكو تارنوفو مدينة جميلة قديمة، والحصن رائع، سوف تحبّه.

"يمكنكِ أن تزورينني في صوفيا أيضًا. سوف نذهب إلى فيتوشا".

"ماذا عن أليكس؟" فكَّرتُ. لكنْ؛ ربمّا تتبادل سيلڤيا وأليكس الإعجاب. وربمّا تصبحان صديقتين. لكني لم أقل ذلك لسيلڤيا.

-٦٧-

التقينا أليكسندر والخالة رومي في حديقة البحر، وذهبنا إلى حانتنا المفضَّلة على الشَّاطئ. قالت أمّي إنها تدعو الجميع هذه الليلة. نخبَ صحَّتي. بعد أن تبادلنا الأنخاب، أخذتُ وسيلڤيا وأليكسندر مشروباتنا الغازيَّة، وجلسنا على الرمل ثانية. أراد أن أخبره عن حادثة غرقي. لم أخبره عن الخوف، لم أخبره عن روح الماء أيضًا. فقط أخبرتُه أني لم أكن قادرًا على الحركة على الإطلاق. وعن قوَّة البحر الذي لم يحرّرني. تحدّثنا عن أمور أخرى أيضًا. لم أعرف متى أقدّم الريشة لسيلڤيا. كنتُ متضايقًا بعض الشَّيء من وجود أليكسندر. ربمّا يشعر بالإهانة؛ لأني لم أقدِّم له شيئًا. أو قد يظنّ بأني مُخنَّث. في النهاية، ذهب إلى دورة المياه. طلبتُ من سيلڤيا أن تنتظر لحظة، وجلبتُ الرِّيشة من أمّي.

"لديّ هديّة من أجلك".

"أوه، حقًا؟ ما هي؟"

وأعطيتُها الرِّيشة. لمستْ بأصابعها رأس الرِّيشة. ومرَّرتْها على طول حافتها الرقيقة. أظن أنها تعرّفتْها. ابتسمتْ، وفي الوقت نفسه، تدحرجت دموع صغيرة من تحت نظّارتها السوداء. ثمّ في تلك الليلة الصيفية، على الرمل، تحت سماء مرصّعةٍ بالنجوم، أمسكتُها، وقبَّلتُها، على شفتيها. قبَّلتْني أيضًا. شعرتُ بأن ألعابًا نارية من السَّعادة تنفجر في قلبي.

سأل أليكسندر لدى عودته: "هيه، ما هذا؟"

أجابت سيلڤيا: "ريشة طائر بجع".

"واو، إنها كبيرة جدًا! جميلة حقًا".

عندما افترقنا، قبَّلتني سيلڤيا على خدّي. وليس على شفتي؛ لأن أمّهاتنا وأليكسندر كانوا هناك. قالت أيضًا إنها سوف تكتب لي. لم أقل شيئًا. كنتُ أخشى أن يرتجف صوتي وأبكي، وقد كان الأمر محرجًا حقًا.

وفيما نحن عائدين سيرًا على الأقدام إلى منزل جدّتي، وضعتْ أمّي ذراعها حول كتفي.

قالت: "سوف نزورهما".

"متى؟"

"قريبًا".

شعرتُ أن الغصَّة في حلقي خفَّتْ قليلًا.

-٦٨-

في صباح اليوم التالي، بعد السِّباحة واليوغا، قلتُ إني لا أشعر برغبة في الذَّهاب إلى بحيرة المياه المالحة. كنتُ متفاجئًا بموافقة جدَّتي.

"أظنُّ أننا غطسنا فيها عددًا كافيًا من المرّات هذا الصَّيف. لكنْ؛ لدي شرط".

أوف، عرفتُ بأن ذلك لن يمرَّ دون شروط!

"سنذهب مرّة أخرى يوم الاحتجاج. وسوف نشارك فيه".

نظرتُ إلى أمّي. هزَّت كتفيها، كما لو أنها تحاول أن تقول لي: "أنت تعلم أنه ما من مجال لمجادلة جدّتك". ثمّ غمرتْني.

قلتُ بالنيابة عنِّي وعنها: "حسنًا".

وبدلًا من الذَّهاب نحو البركة، التفتنا، وتوجهنا إلى الجسر. مشينا على طول الطريق الرئيس، وتناولنا كعكة في متجر نيديليا لبيع المعجّنات.

"ربّما حان الوقت لنعود أنا وأنت إلى صوفيا. ما رأيكَ، مارتي؟"

اكتفيتُ بالإيماء؛ لأن فمي كان مليئًا بكعكة الشوكولا. ربّما حان الوقت بالفعل، نظرتُ إلى جدّتي. ارتشفتُ الشاي، نظرتُ من النافذة.

-٦٩-

قرَّرت أمّي في النهاية أن علينا الذهاب إلى الشَّاطئ في المساء مع أليكسندر ووالدته. في البداية التقيناهما للتنزُّه في حديقة البحر، ثمّ توجَّهنا إلى بركة المياه المالحة. لم يسبق أن سلكنا هذا الطريق ليلًا. كنا نمشي على الرمل ثانية، لكنه كان مختلفًا. كل شيء يصبح في الليل شيئًا آخر. الشاطئ، والبحر، والناس...

رأينا النَّار من بعيد. كان هناك أناس يتحلّقون من حولها. عندما اقتربنا سمعنا صوت الغيتارات. كان رجل وامرأة يعزفان، وامرأة أخرى تغنّي. كان غناءها جميلًا حقًا. ارتفع صوتها نحو السَّماء. لماذا لم تكن سيلڤيا هنا الآن؟ لكانت أحبَّت ذلك حقًا، وجلستْ بالقرب مني في الظلمة، وأمسكتْ بيدي، كما فعلتْ عندما كان أليكسندر يحكي لنا عن حادث السَّير.

عندما وصلنا إلى النَّار، رأينا أن دندي هو الذي يعزف (حسنًا، الخال بالمين، لكنه دندي بالنسبة لي). ابتسم، وأومأ لنا. جلسنا قرب الآخرين، وبدأنا نصغي. لاحظتُ أن الجميع كان مصغيًا، ولم يتحدّث أحد. فقط صوت المرأة والغيتار غمرا الحلقة والشَّاطئ حولنا. حلَّقت أصوات نحو السَّماء المرصَّعة بالنُّجوم، وهبطت إلى البحر. كما لو أن كل ما يمكن أن نقوله بالكلمات قلناه بالصمت وبالموسيقى. حالة عقلية غريبة، حتّى أليكسندر الظريف جدًا عادة والذي لا يهتم للأمور السَّخيفة، هدأ وحدَّق بالنار.

عندما توقّفت المرأة عن الغناء بدأ دندي. يا له من صوت صوته! مَن كان يُخيَّل إليه ذلك؟! قويّ وعميق. ربّما كان مسموعًا من بركة المياه المالحة حتّى الجسر. وفيما هو يغنّي كان ينظر إلى أمّي. كما ينظر الرجال إلى النساء في الأفلام. رفعتُ عينيّ إليها. أضاءت النَّار وجهها الهزيل، لكنه هادئ بطريقة ما. وجدتُها جميلة للغاية. لاحظتُ أنها كانت تنظر إلى دندي أيضًا. وأشحتُ ببصري. ماذا يمكن أن نفعل يا أبي عندما غادرتنا مع مونيكا... راقبتُ البحر، وفكّرتُ بكل الأمور التي حدثت هذه السَّنة، الكثير خلال بضعة شهور...

عندما توقّفوا عن الغناء، جلس دندي معنا. روى لنا بعض الحكايات المضحكة عن بركة المياه المالحة. ثمّ شوى أسياخ الدَّجاج والخبز. لم نأكل أمّي وأنا اللحم طوال الصيف، لذا؛ التهمناه، ولوَّثنا أنفسنا بالدهن. شرحت أمّي ضاحكة: "أمّي لم تطعمنا سوى الخضار طوال الصيف بحميتها الصّحّيّة". فكّرتُ أنه كان مضحكًا أيضًا.

جلسنا على الشَّاطئ حتّى وقت متأخّر. عزفوا وغنُّوا مزيدًا من الأغاني.. دندي، والمرأة وأناس آخرون. ثمّ غرقت في النوم.

استيقظتُ بين ذراعي دندي. كان يضعني في المقعد الخلفي لسيارته. ذهبت الخالة رومي وأليكسندر. جلست أمّي بالقرب منه، عدتُ إلى النَّوم ثانية.

دندي

أريد أن... يمكنني أن أخبركِ أموراً كثيرة ، لكنْ؛ لا أريد، لا جدوى من ذلك.

كنتُ أراكِ طوال الصَّيف عند بحيرة المياه المالحة. في الأيام الأولى،

بدا الحزن في عينيكِ كما لو أنَّه يصبُّ في قلبي. وتساءلتُ مَن؟! كيف؟! لماذا؟ لامرأة مثلك؟ أيّ نوع من الرجال كان هذا؟ أعمى، أحمق، أو متحجِّر القلب؟ كم أردتُ أن أجفِّف كلَّ ذلك الحزن. أن أشربه، وأخفيه، أن أحرّركِ منه. لكني لم أستطع. لم يكن هناك من سبيل. كان يُغلِّفك تمامًا مثل حجاب. وأنت لم تري شيئًا. ولا حتّى الطفل. أمَّا أنا، حسنًا، لم تريني على الإطلاق.

ولماذا عليك أن تريني؟ مَن أكون؟ أحد الضَّفادع الكثيرة التي تشرب من البركة، كما لو في مستنقع حياتها يومًا بعد يوم، الفرق أن تلك البركة هي للصيف، والمستنقع طوال أيَّام السَّنة. ماذا في وسعي أن أقدِّم لك، هل لديَّ أيّ شيء لأقدمه؟

تصافحنا أنا والحبّ منذ وقت طويل، واتّفقنا ألا يقف أحدنا في طريق الآخر. من الواضح أن الواحد منا لم يكن ذا نفع للآخر في هذه الحياة. البحر، بركة المياه المالحة، الطين، هذه هي الأشياء الصَّادقة. ما من كذبة فيها، ما من ادِّعاءات، ولا سوء تفاهم.

تقول الأغنية: "لنذهب ونصيد حلمًا..". لقد انتهيتُ من الأحلام منذ وقت طويل. وأنا أتشبّث بالواقع. شيء يمكنك أن تلمسيه، تشمِّيه، تشعري به على بشرتك، ثمّ تغسليه، كالطين.

كان هناك امرأة، وكان هناك أخريات أيضًا. لكني أتحدّث عن تلك المرأة تحديدًا. حدث ذلك في حياة أخرى. حقيقية وحيوية كالخبز، كان جوهريًا، لكنه في الواقع بدا طبيعيًا جدًا، عاديًا جدًا، كما لو أنه موجود دومًا، وسوف يبقى. وظل الأمر على هذا النحو، إلى أن جاء اليوم الذي غادرتُ فيه دون أيّ استعراض. قالت أنا مغادرة، قالت يجب أن يحدث،

بماذا يمكنك أن تردّي على ذلك؟ إذا كان يجب أن يحدث.. لكنْ؛ ما الذي فرضه؟ ولماذا؟ لماذا تقحمين قوّة خارجية في حين أنك أنت مَن قرّر ذلك، والقرار صدر عنك، أنت تفرضينه، هو لا يفرض نفسه، لأني لا أشعر بتلك الرغبة، لأنك أنت مَن يفعل هذا، هو ليس من الضروري أن يحدث، إنه مفروض من قبلك.

لم أقل لها ذلك. بعض الأمور لا يمكنك أن تفرضها.

ربمّا ستغادرين أيضًا. لهذا السَّبب لا أقول لك أيّ شيء. هناك ما يكفي من اللوعة غير المرغوبة في هذه الحياة دون أن نجلبها لأنفسنا، لا يهمّ أني أرى كيف تنظرين إليّ قرب النار. عيناك مختلفتان الآن. رحل الحزن أخيرًا. والآن تلمع عيناك تلك، وتُغرقاني في الدفء، تدعواني، تعانقاني بالحنان، لكنْ؛ لن أتقدّم، لو تعرفين فقط كم أرغب في ذلك...

هناك أمر وحيد نتعلّمه على الأقلّ بمرور السنين. ألا نكون عبيدًا للعواطف. أن نوقف أنفسنا. أن نتمالك أنفسنا. لأن اللوعة سوف تنجم عن سعادتنا الليلة، وستقيم وقتًا أطول. هذا ما أعرفه. هذا، على الأقلّ ما تعلّمتُه..

لهذا السَّبب سأتوقّف عند المدخل، وأعانقك، وألاطف شعرك الناعم والمرفرف، لكنْ؛ فقط لفترة وجيزة جدًا، لأقطع الطريق على أيّ غواية، ثمّ سأحمل الفتى إلى بيتك، وأتمنّى ليلة سعيدة، يا عزيزتي، يا حبّي غير المتحقّق، ليال سعيدة كثيرة وأيام سعيدة كثيرة وحياة سعيدة، لأنك جميلة جدًا، هل تعرفين حقًا كم أنت جميلة!... وسوف أغادر، سوف تبحث عيناي عنك في المستنقع لأسبوع آخر أو اثنين، ثمّ يحلّ الخريف، ثمّ الشتاء، فصول خريف عديدة وشتاءات..

-٧٠-

تلقَّيت الرِّسالة الإلكترونية الأولى من سيلڤيا. كتبت أنها سعيدة لعودتها إلى البيت، ولرؤية والدها وأصدقائها. كتبت أيضًا أنَّ هذا الصَّيف كان أفضل الأصياف في حياتها. وأن الريشة بخير، وكانت تخبرها الكثير من القصص عن البجع. وأنهما ترسلان بتحيتهما، هي والريشة.

كتبتُ لها أيضًا. قلتُ لها إني مسرور؛ لأنها تعتني بريشة البجع جيدًا. وإن هذا كان أفضل الأصياف بالنسبة لي أيضًا. وإننا لم نعد نذهب إلى بركة المياه المالحة أبدًا، لكننا سوف نعود مرّة أخرى من أجل الاحتجاج، لأننا وعدنا جدّتي.

أرسلت أليكس إليَّ رسالة في فيسبوك. وسألت عن موعد عودتنا. أجبتُ "قريبًا". نظرتُ إلى صورها الملتقطة في عطلة الصيف، وفي بعض منها كانت بصحبة فتى أشقر طويل القامة. ربّما أكبر منَّا سنًا. في إحدى الصُّور كان يطوّقها بذراعه. تضايقتُ قليلًا فقط. بسبب سيلڤيا، كما أني وأليكس لم نتبادل القُبل يومًا. لا يزال في وسعي تذكّر شفتي سيلڤيا على شفتي. لم يحدث لي شيء أفضل من هذا. لا يمكنني وصفه أيضًا. إنها أفضل من تلك القبلة مع مونيكا. عندما أُغلق عيني، يمكنني أن أشعر بهما ثانية، كما لو أنهما تركتا وسمًا إلى الأبد.

واصلنا الذَّهاب إلى الشَّاطئ في الصَّباح الباكر. كان يوم الاحتجاج

وشيكًا. سمعتُ جدّتي تقول لأمّي إنها لا تعتقد حقًا بأن الكثير من الناس سيشاركون؛ لأن لهم "ذهنية القطيع". لم أفهم معنى الذِّهنية، لكني أظنّ أن المقصود بها الإهانة. أنا في الحقيقة مثل الخروف. مرّة ذهبنا إلى قرية بعض الأصدقاء، ورأيتُ الخراف هناك. حتّى إنني لاطفتُهم. كانوا ظرفاء جدًا ولطفاء، ناعمين وبدناء بعض الشيء. شعرتُ حينئذٍ برغبة في كتابة قصّة عن الاحتجاج. لقد خطرت لي الفكرة هكذا من اللا مكان، ربمّا بهذه الطريقة أُسعد جدّتي.

أخذتُ دفتر يومياتي، وكتبتُ:

الاحتجاج الطِّيني

كان هناك كثير من الناس عند بحيرة المياه المالحة يوم الاحتجاج. كانوا مثل كثيِّب النَّمل. يتحدّثون جميعًا في وقت واحد. أمّي، وجدّتي، وأنا كنَّا هناك أيضًا. تحدَّث دندي بعد حين، وكان لا يزال يرأس لجنة الاحتجاج. قال إننا سنغادر عند السَّاعة التاسعة والنصف صباحًا، فيكون لدينا متَّسع من الوقت للوصول إلى هناك مع بداية الاجتماع المزمع عقده عند السَّاعة الحادية عشرة. لهذا لم يطل الجميع البقاء في البركة، ثمّ توجّهوا إلى الطين. كان علينا الانتظار في طابور؛ لأنَّ حفرة الطين لم تكن تتّسع لنا جميعًا.

عندما حان دورنا، دهنَّا أنفسنا بالطين، ثمّ خرجنا، ووقفنا على الطريق بين البركة والشَّاطئ؛ حيث كان الجميع يحتشدون. عندما اجتمعنا كلّنا، وقف دندي، قائد الاحتجاج، أمامنا، وقال: "سنذهب! لنتمنّ لأنفسنا النجاح!" فصاح الجميع: "بالنجاح!" نظرتُ من حولي، ولاحظتُ أن كثيراً من الناس كانوا يحملون الملصقات التي كُتب عليها:

"اتركوا لنا طيننا!"

" جئنا من التراب، وإلى التراب نعود، لا تأخذوا طيننا!"

"بركة المياه المالحة هي طابتنا!"

" لا تأخذوا صحّتنا!"

"لدينا الحقُّ في بركة المياه المالحة والطين، لدينا الحقّ في أن نكون أصحّاء!"

انطلقنا. ربمّا كان يوجد مائة شخص، أو أكثر. كلّنا سود كالأفارقة. كانت جدّتي تتحدّث إلى أشخاص طوال الوقت في أثناء سيرنا، مستعدّة تمامًا للتحرّك أكثر من المعتاد. كان من الصَّعب تخيُّل ذلك، لو عرفت جدّتي. مشينا على الطريق، بدلًا من الشَّاطئ كما كنَّا نفعل عادة. عبرنا حديقة البحر. توقَّف الناس، والتفتوا إلينا. شعرتُ بالتميُّز، بأنني جزء من شيء كبير وهامّ. هبطنا نحو شارع أليكسندروفسكا. كان الناس يصرخون بالأشياء المكتوبة على ملصقاتهم. شعرتُ بأن صوتي يعلو. بدأتُ أصرخ. استولينا على الشَّارع بكامله، وكان الناس يحدّقون نحونا من الرصيف. كان هناك آلات تصوير.

سمعت أمّي تقول لجدّتي: "الصحافة هنا".

توقَّفنا أمام مجلس المدينة، وواصلنا الإنشاد. ثمّ جاء الناس الذين يحملون آلات التصوير. صوّروا، وأجروا المقابلات. جاءت إليَّ امرأة شابّة ظريفة جدًا، وسألتني إذا كنتُ أودُّ أن أجيب على الأسئلة فيما هم يصوّرون. نظرتُ إلى أمّي؛ لتأذن لي. أومأتْ، وقلتُ: "حسنًا". طلبت المرأة مني أن

أتبعها. خرجنا أمّي وأنا من المجموعة، وتوقفنا بجانب رجل، له شارب، ويحمل آلة تصوير.

سألتْني الشابّة: "ما اسمكَ؟"

"مارتن".

" أنا ميكايلا، وهذا فاسيل".

ضحك الجميع.

سألتْني ميكايلا عن بعض الأمور، أجبتُ، وفاسيل صوَّر.

سألتْني عن سبب مشاركتي في الاحتجاج، وقلتُ:

"لأني أريد أن أذهب إلى بركة المياه المالحة، في الصيف القادم أيضًا. وأريد أن تتمكّن جدّتي من الذهاب".

"ومَن قال لك إنك لن تتمكّن من الذهاب؟"

"الجميع. لأنه سوف يكون هناك رسم دخول. ولن نكون قادرين على الدفع".

"لماذا تذهب إلى بركة المياه المالحة؟"

"لأكون في صحّة سليمة، بسبب سيلڤيا".

"مَن هي سيلڤيا؟"

"صديقتي".

سألتني عن أمور أخرى، لكني لا أتذكّر كل شيء. ومع ذلك، لم تكن المقابلة طويلة جدًا.

بعد المقابلة عدنا إلى جدّتي التي كانت واقفة مع الحشد. كان جميع الناس المكسوّين بالطين لا يزالون يُنشدون. لا يزال بعض الناس المارّين على الرصيف يتوقّفون؛ لينظروا إلينا. وبعضهم كان يلتقط الصور.

فجأة توقّف الصياح، وبدأ الهمس يدور في الأرجاء.

"المحافظ، المحافظ".

وقف رجل على السَّاحة أمام المجلس، في مثل عمر أمّي تقريبًا.

هدأ الجميع، وكانوا ينتظرون أن يبدأ المحافظ بالكلام. وفعل. قال إننا معًا يمكننا أن نصون الطين، وإنه لم يكن يعرف مدى أهمّيّته بالنسبة إلى الناس في السَّابق، لكنه فهم الآن، واعتذر قائلًا إننا جميعًا نرتكب الأخطاء في النهاية، وإنه راغب في أن يصحّح خطأه. ثمّ دعانا إلى دخول مجلس المدينة؛ لنتحدث إلى أعضاء المجلس. دخلنا واحدًا واحدًا، بما علينا من الطين، سرنا على السَّجادة الحمراء، وخلّفنا آثار الطين وراءنا. قادنا المحافظ إلى قاعة كبيرة، كان يجلس فيها أناس يرتدون ثيابًا رسمية، بدوا جدّيّين للغاية، وذوي شأن، وعندما رأونا، بدا على وجوههم الذهول. تحدّث المحافظ، وقال إن هناك مواطنين من بورغاس، ولديهم رسالة لنا، ثمّ اعتلى دندي المنصَّة.

قال إن الطين هو مصدر الصحّة المجّاني الوحيد الباقي لنا في هذه المدينة، ونحن نرجوهم ألا يأخذوه منا، وأنه إذا بنوا منتجعًا معدنيًا عند بحيرة المياه المالحة، وبدؤوا بفرض رسم، ما من واحد من الناس الحاضرين اليوم

سيكون قادرًا على استعماله، وأن الطين حيوي لنا. ثمّ تحدّث المحافظ ثانية، قال هذه المرّة إنه قرّر أن يسحب مقترح تطوير المنطقة، وطلب من المجلس التصويت، وتحوّلت القاعة إلى غابة مصنوعة من أيدي الرجال المكسوّين بالبدل، وصوّت جميع أعضاء المجلس لصالح إيقاف المشروع، جميعنا نحن المحتجّين بدأنا نصفّق، ونعانق بعضنا بعضًا.

خرجنا من المبنى، ورقصنا رقصة فلكلورية بلغارية تحت شمس لافحة، لم يكن هناك موسيقى، لكنْ؛ غنّت النساء بجمال. كان المحافظ يتقدّم الرقصة، شاركنا أمّي، وجدّتي، وأنا أيضًا.

تلك الليلة بقينا في البيت، وشاهدنا الأخبار. جاء خالي ليتعشّى معنا. أدرنا التلفاز، وكنا ننتظر التقرير عن الاحتجاج. وفجأة ظهرتُ على الشَّاشة! رأيتُ نفسي أقول ذلك الأمر عن سيلڤيا. وفوق كل شيء كتبوا اسمي. شعرتُ بالإحراج. لكن أمّي وجدّتي وخالي كانوا سعداء حقًا، وحتّى إن والدي اتّصل بي، كان يشاهد الأخبار أيضًا، قال ثانية إنه فخور بي، وكلّه شوق ليراني. في اليوم التالي، تلقّيتُ الكثير من الرسائل في فيسبوك من زملائي في المدرسة الذين كانوا يهنّئوني كوني عظيماً، وقالوا إني نجم الآن. كتبت أليكس أيضًا.

هنّأتني، لكنها سألت أيضًا عن سيلڤيا. لا أعرف السَّبب، لكنْ؛ هذه المرّة لم أشعر بالضيق.

أجبتُ: "صديقة. التقينا عند بركة المياه المالحة. سأخبرك كل شيء عن الأمر".

تلقّيتُ خلال الأيام التالية عددًا كبيرًا من طلبات الصَّداقة في فيسبوك

من أطفال في صوفيا، ومن بلدات أخرى. وحقيقة شعرتُ قليلًا بأني نجم. كتبت سيلڤيا لي أيضًا، قالت إنها استمعت إلى التقرير، وإنها فخورة بي. وترغب أن أخبرها كل شيء عنه، وإنها تفتقدني.

لكن ما هو أكثر أهمّيّة أننا أنقذنا بركة المياه المالحة والطِّين.

-٧١-

جاء خالي لزيارتنا في اليوم السابق للاحتجاج. دعوتُه إلى غرفتي، وأعطيتُه القصّة.

سأل: "ما هذا؟"

"قصّة كتبتُها عن الاحتجاج".

"قصّة جديدة؟ أحسنتَ صنعًا!" بدا صوته سعيدًا جدًا.

"أودُّ أن أسألك شيئًا.."

"نعم؟"

" كنتُ أفكر، هل يمكنهم أن ينشروا هذه القصّة بدلًا من الأخرى؟"

بدا متفاجئًا.

"لا أعرف، لكنْ؛ سوف أسأل".

"من الممكن.."

قال: "يا كاتب خالك الصغير!"

وداعب شعري. حدث هذا يوم الأربعاء.

ركبتُ وأمّي الحافلة المتَّجهة إلى صوفيا يوم الجمعة. كنتُ سأذهب إلى بلوفديف؛ لأمضي أسبوعًا مع جديَّ لوالدي. قادنا خالي إلى المحطّة، وجاءت جدّتي لوداعنا. عانقتْنا بشدة. أولًا أمّي، ثمّ أنا. عندما ابتعدتُ، رأيتُ وجهها مبلّلًا بالدموع. لم يسبق أن رأيتُ جدّتي تبكي يومًا. ظننتُ أنها لم تبكِ أبدًا. لكنْ؛ ها هي تبكي، عانقتُها ثانية، وقلتُ لها: "لا تبكي، جدّتي. أحبّك كثيرًا كثيرًا!" شرعت أمّي بالبكاء أيضًا، لكن هذا لم يكن أمرًا استثنائيًا بالنسبة لها. قالت للجدّة: "شكرًا لك على كل شيء، أمّي!" وعانقتْها، وقبّلتْها ثانية. أمسك خالي بي بذراعيه الاثنتين مثل رجل، وطلب مني أن أستمرّ بالكتابة، وقال إنه سوف يرسل لي نسخة من المجلّة عندما تنشر قصّتي.

غادرنا. لوَّحنا لجدّتي وخالي، إلى أن انعطفنا، لوَّحا لنا، وبينما كنا نغادر المدينة، حدثت معجزة. نظرتُ إلى السَّماء، ورأيت سربًا كاملًا من طيور البجع..كانت في السَّماء فوقنا، لكنْ؛ أكثر انخفاضًا ممّا كانت عليه عند البحيرة، وعرفتُ بأنهم كانوا هنا من أجلي، كانوا يودّعونني، ويقولون لي إنهم سوف يكونون في انتظاري الصَّيف القادم.

وطافت ريشة بجع خفية في روحي برفق.

من الرواية:

هناك أمر وحيد نتعلّمه على الأقلّ بمرور السنين. ألا نكون عبيدًا للعواطف. أن نوقف أنفسنا. أن نتمالك أنفسنا. لأن اللوعة سوف تنجم عن سعادتنا الليلة، وستقيم وقتًا أطول. هذا ما أعرفه. هذا، على الأقلّ ما تعلّمتُه..

لهذا السَّبب سأتوقّف عند المدخل، وأعانقك، وألاطف شعرك الناعم والمرفرف، لكنْ؛ فقط لفترة وجيزة جدًا، لأقطع الطريق على أيّ غواية، ثمّ سأحمل الفتى إلى بيتك، وأتمنّى ليلة سعيدة، يا عزيزتي، يا حبّي غير المتحقّق، ليال سعيدة كثيرة وأيام سعيدة كثيرة وحياة سعيدة، لأنك جميلة جدًا، هل تعرفين حقًا كم أنت جميلة!... وسوف أغادر، سوف تبحث عيناي عنك في المستنقع لأسبوع آخر أو اثنين، ثمّ يحلّ الخريف، ثمّ الشتاء، فصول خريف عديدة وشتاءات..

المتوسط

إيرينا بابنشيڤا: وُلدت في مدينة بورغاس البلغارية. تخرّجت من جامعة "سان كليمنت أورديسكي" بصوفيا، وحصلت على درجة الماجستير في الدراسات السلافية، وتخصّصت في اللغة التشيكية والأدب. أكملت تعليمها في جامعة فريجي في بروكسل ببلجيكا، وحصلت على درجة الماجستير في التكامل الأوروبي والتنمية، وتخصّصت بالسياسة الأوروبية والاندماج الاجتماعي.

مؤلّفة كتاب الأطفال التوضيحي «أنا أتلعثم» ٢٠٠٥، ورواية «شبه عاطفي» ٢٠٠٧، وأنابيل ٢٠١٠، وريشة البجع ٢٠١٣. حصلت روايتها «شبه عاطفي» على ترشيح الجمهور في مسابقة «ربيع الجنوب» الأدبية الوطنية البلغارية ٢٠٠٨ (يوزنا بروليت). واختيرت رواية أنابيل من بين الترشيحات النهائية في يناير/كانون الثاني في مسابقة الرواية البلغارية المعاصرة لمؤسّسة «إليزابيث كوستوڤا» و«أوبن ليتير بوكس» في جامعة روتشستر.

«تحمل رواية «ريشة البجع» بانوراما عن المجتمع البلغاري المعاصر. تغطي الاحتجاجات السياسية والبيئة، والارتباك في القيم الأخلاقية والفقر، وأيضاً الخير والصداقة. الحياة في الكتاب ملونة وأصيلة وحقيقية، ومليئة بالأصوات، وقبل كل شيء تضج بالحياة. القصة واقعية جداً إلى الحد الذي يشعرك في بعض الأحيان أن كل شيء يحدث أمام عينيك، لتصبح شاهداً عن قرب، وتشعر بنشاط وقرب من الشخصيات. نعم تشعر بالقرب: ربما هذا أفضل تعريف قصير لرواية «ريشة طائر البجع».

ميتكو نوكوف، ناقد أدبي ومحرر

هذه الرواية هي قصة حب رومانسية يرويها صوتان مترابطان. أمٌ انتهى زواجها وتسعى لتجاوز الأزمة مستعينة بقدرتها على السخرية وبشجاعتها، وابن في بداية حب أول أحمق ومثالي، ولكن أصيل، وفي قصتيهما وفي أحداث الرواية شهادات حية من بلغاريا المعاصرة، بواقعية سحرية.

ISBN 978-88-99687-50-2
9 788899 687502
المتوسط